

رد نظـــريـــة النظـــم إلى مناظرة السيرافـــي ومتـــى بـــن يـــونس بيـــن هـــدر الإبـــداع ومخـــالفة الحقـائـــق

إعداد

أ.د/ علـــي عبـــد الحميـــد أحمـــد عيـــسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

لجنة التحكيم

أ.د/ فتحـــي عبـــد القـــادر فريـــد	عضو اللجنة العلمية الدائمة
أ.د/ هاشـــم محمـــد هاشـــم	عضو اللجنة العلمية محكمة

رد نظرية النظم إلى مناظرة السيرافي ومتى بن يونس بين هدر الإبداع ومخالفة الحقائق

توطئة :

تشيع كثير من المغالطات فتجوز علينا ... حتى تصير بديلاً عن حقائق وثوابت عاشت راسخة ... وهذا خطر جليل .

وما هو أشد خطراً من هذا هو أن تكون هذه البدائل المشتركة والمزيفة معولاً في هدر العقل العربي، وقتل الإبداع فيه...

ويأتي ذلك على وجوه متعددة في فنون القول والبيان، فمرة ينسب كل جميل وبديع إلى اليونان ... كما فعل د/ طه حسين في مقدمة نقد النثر، حيث زعم أن الجرجاني لم يكن إلا فيلسوفاً أجاد شرح أرسطو والتعليق عليه، وأن نظرية النظم ما هي إلا تأليف بين قواعد النحو وبين آراء أرسطو في الجملة والأسلوب والفصول وقد وفق عبد القاهر فيما حاول توفيقا يدعو إلى الإعجاب[1] ومن ثم صار البيان العربي ــ عنده ــ أمشاجاً مختلطة جمعت أجزاؤه من البلاغة العربية في المادة واللغة ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة، ومن البلاغة اليونانية في وجوب الملاءمة بين أجزاء العبارة، أي من المبدأ الذي يدعو إليه أرسطو [2]، ومن ثم خلص إلى نتيجة تستلزمها المقدمات السابقة وهي أنه لا يكون أرسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان[3] .

وهكذا رسخ د/ طه حسين مقولة التأثير في الثقافة العربية، وجعل البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه خاضعاً للتأثير الأرسطي، وجعل العلم يلتمس من لدن المستشرقين ... وهو ما هيأ العقلية العربية للإحباط واستلذاذ التبعية، والذوبان في الحضارة الغربية والاستهانة بالحضارة الإسلامية العربية، ومن ثم تفتيت ظواهر الفكر العربي إلى جزئيات، وردها إلى الأصول اليونانية ــ

(١) انظر مقدمة نقد النثر / ٣٠ ــ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

(٢) مقدمة نقد النثر /٧ .

(٣) مقدمة نقد النثر / ٣١ .

خاصة ـــ وحضارة الآخرين عامة .[١]

وكان هذا القول بداية استطارة الشرر الذي أحرق العقل العربي والإبداع فيه فتطور الأمر إلى الاتهام بتعمد السرقة وإخفائها ـــ وهذه مرحلة تالية وإن كانت متصلة بما سبق فجاء من اتهم النقاد العرب ـــ زورا ـــ بالسرقة وتعمد إخفاء جرمهم، أو إخفاء مصادر هذا التأثر ... وأرجع ذلك لأسباب هي في جملتها قتل لجانب الإبداع فيهم، وحط من شأنهم ... بين حرصهم على سمعتهم وخوفهم عليها من أن تخدش عندما يقال إنهم أخذوا فكرة ما عن الآخرين... وبين إحساس العرب بالحرج الشديد إذا أعلنوا استخدام منهج أجنبي في الدراسات النقدية والبلاغية التي تقوم في الأساس على بلاغة القرآن الكريم والدفاع عن إعجازه ... وبين غرور الكتاب العرب ومحاولة إظهار براعتهم في الابتكار الأدبي دون الكشف أو الإشارة إلى اعتمادهم على أفكار الآخرين[٢].

وكان ذلك مقدمة لتجريح آخر، في البحث عن مصادر أخرى لجوانب الإبداع لديهم ...

ومن ثم حاول بعض الباحثين المعاصرين [٣] سلب دلائل الإعجاز من صاحبه ونسبته إلى غيره وزعم أن مناظرة أبي سعيد السيرافي [٤] ومتى بن يونس [٥] القنائي المنطقي في المفاضلة بين النحو والمنطق [٦] هي الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر الجرجاني كتابه : (دلائل الإعجاز)، بل إن

(١)انظر : طه حسين والفكر اليوناني مقال د/ عباس أرجلة ـــ موقعه الالكتروني .

(٢) انظر في ذلك : موقف الكتاب والمؤلفين المسلمين من تراث الأوائل د/ محمد الحسين ، والتأثير اليوناني في النقد العربي القديم د/ داود سلوم ، موقع الكتاب العربي الالكتروني .

(٣) الدكتور / حسن إسماعيل عبد الرازق في كتابه : (دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني) ط / أولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الطباعة المحمدية .

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان ، أبو سعيد السيرافي النحوي، كان من أعلم الناس بنحو البصريين له شرح كتاب سيبويه ، والوقف والابتداء ، وصناعة الشعر والبلاغة ، توفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة . انظر : الوافي بالوفيات ، الصفدي ١٥٢/٤ ، ووفيات الأعيان ١٥٣/٥ .

(٥) هو متى بن يونس النصراني ، عالم بالمنطق شارح له من أهل ديرقني . ينظر : أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ١٢٩/١ ، وفيات الأعيان ١٥٦/٥ .

(٦) هي مناظرة جرت بينهما بحضرة الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات . انظر : المناظرة في البحث .

ما قاله أبو سعيد السيرافي في تلك المناظرة يعد (متنا) وضعه عبد القاهر أمامه وجعل كتابه شرحاً لهذا المتن ... (١)

بل أخذ يتهم الإمام بتعمد إخفاء أبي سعيد السيرافي، يقول : " ولم يذكر اسمه، إمعانا في إخفاء اسمه حتى لا يظهر أخذه لنظرية النظم من مناظرته واعتماده عليها في إبراز أفكاره التي رد بها على المعتزلة (٢)

ويقول في موضع آخر : وهكذا تجد أنك قد عثرت على أول خيط يربط بين دلائل الإعجاز ومناظرة أبي سعيد السيرافي وإن كان عبد القاهر لم يذكر أبا سعيد السيرافي ضمن من أفاد منهم حتى لا يعرف فضل أبي سعيد على عبد القاهر وحتى تسلم له النظرية ويذكر وحده بالفضل.... (٣)

ثم توصل في آخر الكتاب إلى نتيجة، يقول : " وبهذا يثبت أن نظرية النظم إنما هي لأبي سعيد السيرافي وليست لغيره " (٤) ...

ولما كان ذلك الكلام يمثل خطراً كبيراً على الثوابت من غير دليل صحيح، أو سند يرقى إلى القبول كان لزاماً عرض أدلته وطريقته في إثبات ذلك ونقدها وبسط القول في ذلك على وجوه متعددة حتى يتبين لذي نظر إثبات نظرية النظم لصاحبها وأن أبا سعيد السيرافي لا يمثل أكثر من طور في نشأتها وبذرة في حلقها حتى استوت عند الإمام نظرية مكتملة ... وسنعرض أدلته بإيجاز، نتبعها بعرض واف لكل دليل على حدة، ثم نتبع كل دليل بما ينقضه (٥)...

(١) انظر : دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني ٤، ١٨٦ ، ١٨١ .

(٢) السابق /٤ ، ١٨٦ ، ١٨١ .

(٣) السابق /٤ ، ١٨٦ ، ١٨١ .

(٤) السابق / ٤ ، ١٨٦ ، ١٨١ .

(٥) انظر : في البحث البلاغي قراءة ثانية د / علي عبد الحميد عيسى ٦٠ ط أولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

أولاً : أدلتـــه بإيجـــاز

استدل الباحث على ذلك بما يلي :

أولاً : التطابق بين موضوعات الدلائل والقضايا التي أثيرت في المناظرة من حيث العموم، حيث أن الأفكار التي وردت في الدلائل هي نفس الأفكار التي وردت في المناظرة .

ثانياً : ترتيب الأفكار على نسق واحد ؛ حيث أن تلك الأفكار قد جاءت في الدلائل مرتبة على حسب ترتيبها في المناظرة .

ثالثاً : أن عبد القاهر في الدلائل لم يكد يأتي بأفكار جديدة لم تكن في المناظرة وإنمـــا قـــام الكتاب كله على نظرية النظم وشرحها وإقامة الدليل على صحتها بما قرأه في كتب النقاد السابقين كالوساطة للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ونقـــد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر .

رابعاً : أن طريقة الكتاب هي طريقة المناظرة وليست طريقة كتاب تعد أفكـــاره وتـــنظم كالذي نجده في أسرار البلاغة ولهذا فإنه أكثر من قوله : (فإن قلتم كذا) (قلنا كذا) .

وهذا هو السر في أنه يقول في أوائل الدلائل : " وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره وأن أسمي لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله ـــ عز وجل ـــ حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك، فاعلم على أن ههنا فصولاً يجئ بعضها في إثر بعض ... " [1].

واستغرب الباحث من عدم ذكر السيرافي على حين تراه يذكر أبا على الفارسي ثـــلاث مرات في دلائل الإعجاز وهي في قوله : " ومن ذلك ما أنشده أبو علي في الإغفال "، وقولـــه : " قال الشيخ أبو علي في الشيرازيات "، وقوله : " أنشد الشيخ أبو علي في التذكرة ... "

ويرى الباحث أن الأغرب من هذا أن عبد القاهر قد رفض رأيا لأبي سعيد السيرافي وهو يؤلف الدلائل ولم يشر إليه إمعاناً منه في إخفاء ذكره وذلك عند شرح سيبويه لقول الخنساء [2] :

ترتع ما رتعت حـــتى إذا ادكـــرت ∴ فإنمـــا هـــي إقبـــال وإدبـــار

(١) ينظر : السابق / ٥ وما بعدها

(٢) من قصيدة مطلعها : (قذي بعينك أم بالعين عوار) الديوان ٣٤ دار صادر .

" فجعل الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام، كقولك : نهارك صائم وليلك قائم[1] "، حيث ذهب أبو سعيد السيرافي [2] في شرحه للكتاب : "يقدرون مثل هذا على تقديرين :

أحدهما : أن يقدروا مضافا إلى المصدر ويحذفونه كما يحذفونه في: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [3].

الثاني : أن يكون المصدر في موضع اسم الفاعل، وكان الزجاج يأبى إلا الوجه الأول ... " وعليه فالمجاز مجاز حذف أو مجاز مرسل علاقته التعلق بالاشتقاق .

ويرفض الإمام الوجهين كليهما وينظم البيت في سلك ما أسماه بالمجاز الحكمي [4]، يقول الإمام : " وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذلك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار ... واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معدما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ... وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون المضاف ويقولون إنه في تقدير : فإنما هي ذات إقبال وإدبار، ذاك أن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى ... وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول وإلى كلام عامي مرذول، وكان سبيلنا سبيل من يزعم [5] ــ مثلا ــ في بيت المتنبي :

بدت قمراً ومالت خوط بان ∴ وفاحت عنبرا ورنت غزالا

(١) الكتاب ٦٨/١ باب ما ينتصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل وإظهاره .

(٢) نسب الباحث هذين التقديرين إلى أبي سعيد السيرافي مع أنهما من التقديرات الشائعة قبل أبي سعيد السيرافي، ولا أدرى ما وجه ذلك ، انظر المقتضب ١٨٤/١ ، ٢٦٦ ، ومعاني القرآن للأخفش ٧٣/١ ، والكامل / ٧٦ ، ٣٠٠ ، وسيأتي تفصيل القول في إبطال هذا .

(٣) يوسف : ٨٣ .

(٤) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني / ٥ ، ٦ .

(٥) وهذا ما قرره شراح ديوان المتنبي من أن هذه أسماء وضعت موضع الحال والمعنى : بدت مشبهة قمرا في حسنها ومالت مشبهة خوط بان في تثنيها ، انظر شرح ديوان المتنبي للواحدي ١١١/١.

أنه في تقدير محذوف وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان ... في أننا نخرج إلى الغثاثة وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطنها ويخفض من شأنها ويصد أوجهنا عن محاسنها ... "[1]

فإذا كان هذان التقديران من الشيوع والذيوع قبل الإمام، بل قبل السيرافي فكيف يجعلهما المؤلف وسيلة للاستدلال على أن الإمام أخفى اسم أبي سعيد السيرافي هنا لتسلم له نظرية النظم ... ؟!

(١) الدلائل / ٣٠٠ ــ ٣٠٢ .

تفصيـــل أدلـــة المؤلـــف وبســـطها

الدليل الأول :

" إن الأفكار التي وردت في الدلائل هي نفس الأفكار التي وردت في المناظرة " ويستدعي هذا الدليل عرضا للمناظرة حتى نتبين أفكارها ومدى تطابقها مع الأفكار المبثوثة في دلائل الإعجاز، فإذا بان لك تباينهما عرفت فساد الدليل . (١)

نص المناظرة :

" ... ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كـــان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة .

قال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاســـد المعنى من صالحه ...

فقال أبو سعيد : أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظر المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحث بالعقـــل ... ودع هذا أسألك عن حرف واحد وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عنـــد أهـــل العقـــل فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطا ليس الذي تدل به وتباهي بتفخيمه وهو الواو، مـــا أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه؟

فبهت متى، وقال : هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه، والنحوي في حاجة شديدة إلى المنطق لأن المنطق يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عثـــر النحوي بالمعني فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى .

فقال أبو سعيد : أخطأت لأن النحو والمنطق، واللغة واللفظ، والإفـــصاح والإعـــراب، والإبانة والحديث، والإخبار والاستخبار، والعرض والتمني، والنهي والحض، والـــدعاء والنـــداء والطلب، كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة، ألا ترى أن رجلا لو قال : نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق، وتكلم بالفحش، ولكن ما قال الفحش، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح، وأبان

(١) هناك مواضع تمحض الكلام فيها للحديث عن المنطق فآثرنا حذفها ، خوفا من التطويل ...

المراد ولكن ما أوضح، أوفاه بحاجته ولكن ما لفظ أو أخبر ولكن ما أنبأ، لكان في جميع ذلك محرفاً ومناقضا وواصفا للكلام في غير حقه ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره، والنحو منطق ولكن مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة ...

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها إلى يونان .

فقال أبو سعيد : أخطأت ؛ لأنك في هذا العقل والاسم والحرف فقير إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات ... ومع هذا فحدثني من الواو ما حكمه فإني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئا وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان، ومن جهل حرفا أمكن أن يجهل حروفاً، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكمالها ... وإنما سألتك عن معاني حرف واحد فكيف لو نثرت عليك الحروف كلها ؟ وطالبتك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق والتي لها بالتجوز ...

قال ابن الفرات[1] : أيها الشيخ الموفق : أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشد في إفحامه وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ومع هذا فهو مشنع به .

فقال أبو سعيد : الواو وجوه ومواقع، منها معنى العطف في قولك: أكرمت زيدا وعمراً، ومنها القسم في قولك : والله لقد كان كذا وكذا، ومنها الاستئناف في قولك : أخرجت وزيد وقائم، لأن الكلام بعده ابتداء وخبر، ومنها معنى رب التي هي للتعليل نحو قولهم : وقائم الأعماق خاوي المخترق، ومنها أن تكون أصلية في الاسم كقولك : واصل وفي الفعل كذلك كقولك : وجل يوجل، ومنها أن تكون مقحمة، نحو قول الله عز وجل : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ﴾ .[2]

(١) هو الوزير الذي جمع بين السيرافي ومتى بن يونس في المناظرة حول المفاضلة بين المنطق والنحو وكانت سنة ست وعشرين وثلاثمائة .

(٢) الصافات / ١٠٣ ، ١٠٤ .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا، ههنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي، ما تقول في قول القائل : زيداً أفضل الأخوة؟ قال : صحيح، قال : فما تقول : إن قال : زيد أفضل أخوته؟ قال: صحيح، قال : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟ فبلح، وجنح، وغص بريقه.

فقال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة، المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها، والمسالة الثانية جوابك عنها غير صحيح، وإن كنت أيضا ذاهلا عن وجه بطلانها .

فقال متى : بين لي ما هذا التهجين ؟ ...

فقال أبو سعيد : إذا قلت : زيد أفضل أخوته لم يجز، وإذا قلت : زيد أفضل الأخوة جاز، والفصل بينهما أن أخوة زيد هم غير زيد، وزيد خارج عن جملتهم، والدليل على ذلك : أنه لو سأل فقال: من أخوة زيد، لم يجز أن تقول : زيد وعمر وبكر وخالد وإنما تقول : بكر وعمر وخالد ولا يدخل زيد في جملتهم، فإذا كان زيد خارجاً عن أخوته صار زيد عمر وبكر خالد وإنما تقول : بكر وعمر وخالد، ولا يدخل زيد في جملتهم، فإذا كان زيد خارجا عن أخوته صار غيرهم، فلم يجز أن تقول: أفضل أخوته، كما لم يجز أن تقول : إن حمارك أفره البغال، لأن الحمير غير البغال، كما أن زيداً غير أخوته، فإذا قلت : زيد خير الأخوة جاز لأنه أحد الأخوة والاسم يقع عليه وعلى غيره، فهو بعض الأخوة، ألا ترى أنه لو قيل : من الأخوة ؟ عددته فيهم فقلت : زيد وعمر وبكر وخالد، فيكون بمنزلة قولك : حمارك أفره الحمير لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير، فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل الجنس، فتقول : زيد أفضل رجل، وحمارك أفره حمار، فيدل رجل على الجنس، كما دل الرجال.

فقال ابن الفرات : وما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جل علم النحو عندي بهذا الاعتبار...

فقال أبو سعيد : معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك ...

وإنما دخل العجب على المنطقيين لظنهم أن المعاني لا تعرف ولا تستوضح إلا بطريقتهم ونظرهم وتكلفهم، فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون، وجعلوا تلك الترجمة صناعة، وادعوا على

النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى.

ثم أقبل أبو سعيد على متى فقال : أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء بها صار ثوبا، وتقول بالمثل : هذا ثوب، والثوب يقع على أشياء بها صار ثوباً، لأنه نسج بعد أن غزل، فسداته لا تكفي دون لحمته ولحمته لا تكفي دون سداته، ثم تأليفه كنسجه، وبلاغته كقصارته، ورقة سلكه كرقة لفظه وغلظه عزله ككثافة حروفه، ومجموع هذا كله ثوب ...

قال ابن الفرات : سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإن هذا كلما توالى عليه بان انقطاعه ...

قل أبو سعيد : ما تقول في رجل يقول : لهذا على غيرهم غير قيراط ولهذا الأخر على درهم غير قيراط ... قال رجل لصاحبه : بكم الثوبان المصبوغان ؟ وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغان ؟ وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغين ؟ بين هذه المعاني التي تضمنها لفظ لفظ ...

ثم قال أبو سعيد : وأنت إذا قلت لإنسان : كن منطقيا فإنما تريد كن عقليا أو عاقلاً، أو أعقل ما تقول لأن أصحابك يزعمون أن المنطق هو العقل وهذا قول مدخول...

وإذا قال لك آخر : كن نحويا لغويا فصيحاً فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول، ثم رم أن يفهم عنك غيرك، وقدر اللفظ على المعنى ن فإنه يفصل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقصي منه، هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به، فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فأجعل اللفظ بالروادف الموضحة والأشباه المقربة والاستعارات الممتعة وبين المعاني بالبلاغة، أعنى لوح منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها؛ لأن المطلوب إذا ظفر به على هذا الوجه عز وجا وكرم وعلا ... فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق ...

ودع هذا : ههنا مسألة قد أوقعت خلافاً فارفع ذلك الخلاف بمنطقك ــ قال قائل : لفلان من الحائط إلى الحائط ما الحكم فيه ؟ وما قدر المشهود به لفلان ؟ فقد قال ناس : له الحائطان معا وما بينهما وقال آخرون : له النصف من كل منهما، وقال آخرون له أحدهما، هات الآن آتيك الباهرة ... وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك...

ودع هذا أيضا : قال قائل : من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ، فسره هذه الجملة واعترض

عليه عالم آخره، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرنا قوة صناعتك التي تميز بها بين الخطأ والصواب وبين الحق والباطل ...

فقد بان الآن مركب اللفظ لا يجوز مبسوط العقل والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامة، وليس في قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به ... وأنت لو عرفت تصرف العلماء والفقهاء في مسائلهم ووقفت على غورهم في نظرهم وغوصهم في استنباطهم وحسن تأويلهم لما يرد عليهم وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنايات المفيدة ... لحقرت نفسك وازدريت أصحابك . (١)

(١) تنظر : المناظرة في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، ص ١/١١٠ وما بعدها ، الطبعة الثامنة .

تمييز الأفكار التي وردت في المناظرة وإسقاطها على الدلائل

أولاً : أفكارها :

تمييز أفكار المناظرة إلى قسمين رئيسين على حسب المتناظرين:

القسم الأول : ويحتوي على دعوى متى بن يونس

- كفاية المنطق للإنسان في معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والشك من اليقين فلا حاجة له إلى تعلم علم النحو بمسائله وفروعه ... ويكفي معرفة الاسم والفعل والحرف ...
- أن المنطقي ليس في حاجة إلى علم النحو بينما النحوي في حاجة ماسة إلى المنطق ...
- أن المنطقي يبحث في المعنى والنحوي يبحث في اللفظ فالمناطقة مع المعاني والنحويون مع الألفاظ والمعنى أشرف من اللفظ .

القسم الثاني : ويحتوي على رد أبي سعيد وهو مبني على ما يلي:

- أن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف لأنه لا يعرف بميزان المنطق، بل بمعيار النظم والإعراب، لأن الإعراب هو مفتاح مغاليق الكلام فتعرف به حقائق المعاني ومعادنها وجواهرها لأن الأمر ليس مقصوراً على الوزن الظاهري في الأجسام المرئية ...
- إذا كان المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة فإنها لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف فلابد من معرفة اللغة ...
- إذا كنت محتاجاً إلى قليل هذه اللغة من أجل الترجمة، فلابد له أيضا من كثيرها لتحقيق الترجمة..
- وإذا كنت محتاجاً من اللغة العربية إلى الاسم والفعل والحرف فأنت محتاج إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها وأنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف لأن الخطأ في الحركات كالخطأ في المتحركات .
- معرفة المعاني ليست قاصرة على علم المنطق، بل إنها أيضا تعرف بعلم النحو، ومعاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ مع ذلك وهذه المعاني تعرف من خلال معرفة النظم ...

- نظم الكلام اسم واقع على أشياء قد اتفقت بمراتب، وهو كنسج الثوب، إذ تقول : هذا ثوب والثوب اسم واقع على أشياء بها صار ثوبا لأنه نسج بعد أن غزل، وسداته لا تكفي دونه لحمته ولحمته لا تكفي دون سداته، ثم تأليفه كنسجه ... ومجموع هذا كله ثوب.
- المقصود بقولك كن نحويا، لغويا، فصيحاً، فإنما يقصد افهم عن نفسك ما تقول، ثم حاول أن يفهم عنك غيرك، فإذا أردت الإخبار عن حقائق الأشياء فقدر اللفظ على المعنى فلا يزيد عليه وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقض عنه المنطق لا يرفع الاختلاف ... كما هو في النظر في اختلاف الناس في الملل والنحل ... الخ .

ثانيا : إسقاط تلك الأفكار على (الدلائل) :

حاول الباحث جاهداً أن يجد لهذه الأفكار معادلاً عند الإمام في الدلائل فوجد ما يلي: أن الإمام بدأ بالرد على من زهد في علم النحو من المعتزلة ... وأن المعيار عنده هو الإعراب، وأن النظم يتم عن طريق اختبار الألفاظ ثم ترتيبها في المنطق على حسب الترتيب في النفس، وأن معاني النحو كالإصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش في الثوب بالتخيير والتدبر فيها وفي مواقعها وقاديرها وكيفية مزجه لها، وأن نتيجة ذلك هو زلل المفسر إذا لم يكن على دراية بعلم النحو لأن من الآيات ما يحتمل أكثر من تأويل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ [1] كما أن نظرية البيان هي معنى المعنى ... [2]

نقض الدليل الأول :

مبنى الدليل الأول على أن أفكار المناظرة هي بعينها أفكار دلائل الإعجاز ...

وهذا خطأ صريح من وجوه مختلفة نتبينها من خلال نص الإمام نفسه [3] :

أولاً : قول أبي سعيد السيرافي في سؤاله لمتى : ما تقول في قول القائل : زيد أفضل الأخوة وزيد أفضل إخوته سؤاله عن مدى صحة ذلك ثم تخطئته كما تقدم في المناظرة ما يدل دلالة واضحة

(١) النساء / ١٧١ .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني / ٩٣ ــ ٩٨ .

(٣) انظر في البحث البلاغي قراءة ثانية / ٧٣ وما بعدها .

على أنه يبحث عن الصحة والصواب، وقد نص الدكتور على ذلك في قوله : إن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم ... وقوله : وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك ... تعرف من خلال معرفة النظم ... الخ

وهذا بعيد من كلام الإمام عبد القاهر بعد الثرى من الثريا؛ لأن الإمام قد تعدى تلك المرحلة بكثير، فلم يبحث في الخطأ والصواب من حيث الإعراب وإنما بحث في خصوصيات الكلام الصحيح بنصه هو، انظر إليه وهو يقول : فإن قلت : أفليس هو كلام قد اطرد على الصواب وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الكلام فضيلة ؟

قيل : أما الصواب كما ترى فلا : لأنا لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيغ الإعراب فنعتد بمثل هذا الصواب وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر وفضل روية وقوة ذهن وشدة تيقظ، وهذا باب ينبغي أن تراعيه وأن تعني به حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع وضممت إلى كل شيء شكله وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هو منه في نظمه ...".[1]

ثم نبه الإمام إلى أن هذا باب يكثر فيه الغلط، فلا تزال ترى مستحسنا قد أخطأ بالاستحسان موضعه فينحل اللفظ ما ليس له ... [2]

وهذا يعني أن تحليل البلاغة للشعر والأدب تحليل يتقصى كل كلمة ومن جهات مختلفة ويسأل لماذا قدمت ؟ ولماذا نكرت؟ ولم كان تعريفها باسم الإشارة ؟ ولماذا جاءت على صيغة الفعل، وهكذا وراء كل هذا من دقائق المعاني ما يبررون به النص ويظهر به ضعفه أو رجحانه...[3]

(١) الدلائل / ٩٨ .

(٢) السابق /٩٨ .

(٣) انظر : نظرات في دلائل الإعجاز للباحث / ٤٠ وما بعدها .

وعلى هذا كان هاجسه من أول الطلب هو التعرف على الشيء الذي صار بـه الكـلام الحسن حسنا، أي شيء يحدث في الكلام حتى ترتفع طبقته؟ وأي شيء حدث في القرآن حتى بهـر وقهر ؟ .

وكان المعول عليه هو خصائص الألفاظ وأحوالها التي هي معاني النحو، وأنها إذا وقعـت موقعها وأصابت مقامها في سياقها أكسبت الكلام حسنا، وهذا يعني أن ربـط المعـاني النحويـة بمقامات الكلام ومقاصد المتكلمين هو جوهر العلم الذي إليه ترجع جودة الكلام الجيد فبرزت عند عبد القاهر فكرة تسلطت عليه وهي التوخي وفق المعنى الذي يؤم وهذا هو الإكسير الذي أفرغـه على معاني النحو فصارت به علم (دلائل الإعجاز) وكانت قبل هذا قائمة في الكلام كلـه علـى الصحة والتمام [1] .. وبهذا تعلم الفرق بين الكلامين ...

ومما يدل دلالة واضحة على الفرق بين الكلامين تركيز أبي سعيد السيرافي على بيان المراد من معاني الحروف، وكأن هذا هو غاية المراد ونهاية المطاف، ترى ذلك بيناً في بيان المراد من (الواو) فبين أنها تأتي للقسم والاستئناف والتقليل وأصلية ... الخ تلك المعاني التي تقدمت في نص المناظرة، ثم في بيانه معنى : (في) .

(١) انظر مدخل إلى كتاب الإمام / ٣١ .

أما الإمام عبد القاهر فقد تعدى غرضه تلك الإشارات إلى وضع كل لفظة موضعها الأخص بها " فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة " . (١)

فالمعول عليه ليس المعنى الأصلي، بل إصابته موضعاً لائقا به، ولذا نبه الإمام إلى كيفية ذلك وطريقه بأن تنظر إلى وجوه كل باب وفروقه فتنظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج .

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني زيد مسرعاً وجاءني يسرع، وجاءني وقد أسرع، وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع..الخ فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجئ به حيث ينبغي له ..

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجئ بـ(ما) في نفي الحال وبـ(لا) إذا أراد نفي الاستقبال وبـ(إن) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل " ... (٢)

أرأيت كيف قرر الإمام ما هو أبعد من المعاني الأصلية والفرعية إلى ارتباط تلك المعاني والأغراض بموضعها ونسقها على حسب الأغراض والمقامات ... ؟

(١) الدلائل /٨٢ ــ ٨٣ .

(٢) الدلائل / ٨١ ــ ٨٢ .

أين هذا ـــ ومثله كثير ـــ من كلام أبي سعيد السيرافي في بيان أصل المعنى للحرف أو بيان الصحة والخطأ في أصل اللغة دون أن يتعدى إلى نفس المتكلم ؟

معاني النحو بين السيرافي وعبد القاهر :

ذكر الباحث أن معاني النحو عند أبي سعيد السيرافي قائم على ما يلي:

أ- حركات اللفظ وسكناته .

ب- وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها .

ج- تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وذلك في قوله : " معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك " .

ثم يقارن الباحث بين ذلك وقول الإمام في تعريف النظم : " تتبع أو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام " .

ويستنتج من ذلك بأن عبد القاهر قد أخذ من مناظرة أبي سعيد شطر النظرية فحسب وهو تتبع أو توخي معاني النحو فيما بين الكلم أما شطرها الآخر وهو " على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام " فليس مما قاله أبو سعيد في مناظرته ...

ثم عز عليه أن يكون الإمام قد فطر نصف النظرية الثاني فراح يبحث عنها في كتب سابقيه فوجدها عند ابن سنان الخفاجي ليخرج الإمام من نظرية النظم صفر اليدين، يقول : " وقد كدت أثبت لعبد القاهر هذا الفضل، وأن تمام النظرية كان من بنات أفكاره وذلك قبل أن أتأكد من أن سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ... قد ألف قبل دلائل الإعجاز، فلما ثبت لدى ما يؤكد لي أسبقية سر الفصاحة على دلائل الإعجاز أمعنت النظر فيه لكي أتبين مواطن الأخذ منه للدلائل فوجدت أن الشطر الآخر من نظرية النظم وهو قول عبد القاهر (على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام)= مأخوذ من كتاب سر الفصاحة لابن سنان وهو يتحدث عن (الكلام في الألفاظ المؤلفة) ... [1]

(١) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني /١٣٨ ـــ ١٤٢ .

هل أقام الإمام نظريته على معاني النحو فقط ؟

إن أول ما يدخل الكلام السابق في باب الغلط هو أن الإمام لم يقم نظريته على معاني النحو فقط وإما مزج بين معاني النحو ومعاني الشعر ؛ لأن الشعر كما قال هو معدن البلاغة، والنحو هو المناسب لها الذي ينميها إلى أصولها، وأن البلاغة نتاج ما بينهما ... فعبد القاهر مزج علم الجاحظ بعلم سيبويه، وأن الرونق والطلاوة والحسن والحلاوة وهي معاني الشعر وأوصافه — ليس لها معنى إلا التقديم والتأخير .

حيث يمثل تحليل الإمام عبد القاهر لبعض الأبيات في الدلائل نموذجاً يحتذى لربط معاني النحو بمعاني الشعر — كما سترى بعد — لذلك سأعرض بعض المواضع التي حللها الإمام وأعقب عليها بالشرح وذلك من خلال ثلاثة مواضع من كلام الإمام، حتى يتبين لك الفرق جليا بين فكر الإمام هنا وما ذكره أبو سعيد السيرافي في مناظرته .

الموضع الأول :

من شواهد الإمام على محاسن النظم، حيث استدل بأبيات للبحتري وإبراهيم بن العباس على أن حسن النظم يرجع إلى توخي معاني النحو ومراعاة الوجوه التي اقتضاها...

أبيات البحتري في الفتح بن خاقان :

نظر الإمام إلى قول البحتري في الفتح بن خاقان :

بلونا ضرائب من قد نرى ∴ فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا ∴ ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقل في خلقي سؤدد ∴ سماحا مرجي وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا ∴ وكالبحر إن جئته مستثيبا

فيرى الإمام أن سبب حسن الأبيات راجع إلى أنه راعى معاني النحو من تقديم وتأخير وحذف وذكر، والتكرير ... " أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : هو المرء أبدت له الحادثات .

ثم قوله : تنقل في خلقي سؤدد بتنكير السؤدد، وإضافة الخلقين إليه، ثم قوله : فكالسيف

وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى لا محالة، فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف في قوله : وكالبحر ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله : صارخاً هناك ومستثيبا ههنا ... ".[1]

تعليل الحسن وشرحه :

لم يعلل الإمام لحسن التنكير هنا أو الحذف هناك ولعل ذلك لوضوحه في نفسه وضوحا أجراه على قارئه ... وهو من حسن الظن بالمتلقي ... فنقول :

- قوله : " هو المرء أبدت له الحادثات " سبب الحسن يرجع إلى تقديم ضمير الشأن والقصة : هو " للدلالة على فخامة أمره ونباهة شأنه وكأنه معلوم مشهور بذلك، بحيث إذا قدم ضميره لا ينصرف الذهن إلا إليه ادعاء او حقيقة لتفرده بتلك المكارم بين أقرانه ...

ولذلك تجد ضمير الشأن والقصة لا يقدم إلا في الأمور العظيمة الجليلة، تدبر قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [2] مع أن مقتضى الظاهر تقدم الاسم العلم وتأخير الضمير، ولكن لما كان شأن الأحدية لا تتعدى إلى غيره سبحانه صار معروفا بها بحيث إذا أطلق الضمير لا ينصرف إلا إليه حقيقة... وهذا واضح.

- قوله : (تنقل في خلقي سؤدد) بتنكير (السؤدد) وذلك للدلالة على التعظيم والتفخيم للسؤدد، ليدل من باب أولى على تعظيمه هو وتفخيمه هو، وهذا من باب أولى .
- قوله : (وإضافة الخلقين إليه) فالإضافة هنا تفيد التملك والاختصاص المجازي، وهذا يدل على أن تلك الأخلاق متأصلة فيهم يتوارثها الأبناء عن الآباء، وهذا بخلاف القطع عن الإضافة فإنه ربما أوهم أن تلك الأخلاق طارقة عندهم، تزول بعد قليل، لأنها من غير جذور.
- قوله : ثم قوله (فكالسيف وعطفه بالفاء مع حذف المبتدأ) وذلك لأن العطف بالفاء يفيد التسبب والتعقيب، فهو لا يتوانى في نجدة الصارخ وإعطاء المستثيب، ثم في دلالة الفاء على التسبب إيماء إلى أثر تلك الجدود الكريمة التي تنقل فيها في تلك المكارم التي تظهر عليه ثم في

(١) الدلائل / ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) الإخلاص / ١ .

حذف المبتدأ (هو) تنزها عن العبث لتقدم ذكره في الأبيات فهو متعين من السياق والسباق...

- قوله : (ثم تكريره الكاف في قوله : وكالبحر) وذلك لزيادة التوكيد وتثبيت تلك الحقائق في ذهن المتلقي، لاسيما وأن تلك الخصال وكونها مجموعة في رجل واحد قد يتردد المتلقي في قبول الحكم، فكأن التكرير لتثبيت القول وتأكيده، ثم في التكرير فائدة ثانية وهي الدلالة على استقلال الجملتين، وفي ذلك إيماء إلى كماله في كل صفة على حدة .. فهما بارزان لكل راء .
- قوله : (ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه) وذلك للدلالة على المبالغة في الحالتين أي إنه متصف بهاتين الصفتين في أشدهما فهو فيما دون ذلك أولى .

وتفصيل ذلك أنه إذا كان كالسيف في النجدة والمضاء والصرامة في وقت مجيئه صارخاً وهو وقت الشدة والصراخ والغوث فهو فيما دون ذلك أولى بأن يتصف بهذه الصفات، وكذلك إذا كان مثل البحر في الجود والعطاء عند مجيئك له طالبا ما يقتضي ذلك من الثقل والمشقة على النفس فهو كريم عند غيره .

- قوله : ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر وذلك قوله: (صارخا) هناك (ومستثيبا) ههنا وذلك للملائمة بين صارخاً والسيف فهو به أشبه، ثم الملاقاة بين مستثيبا والبحر فهو به أولى؛ لأنه يعطي وبجود ... ولو عكس لأخطأ [1] .

أبيات إبراهيم بن العباس :

وكذلك أرجع الإمام الحسن إلى معاني النحو في قول إبراهيم بن العباس:

فلو إذنبا دهر وأنك صاحب ∴ وسلط أعداء وغاب نصير
تكون على الأهواز داري بنجوة ∴ ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمدا ∴ لأفضل ما يرجي أخ ووزير

" فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك، فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو إذ نبا على عامله الذي هو تكون وأن لم يقل : فلو تكون على الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر، ثم أن قال : (تكون) ولم يقل كان، ثم أن نكر الدهر،

(١) انظر : نظرات في دلائل الإعجاز للمؤلف / ٤٣ وما بعدها .

ولم يقل : فلو إذ نبا الدهر، ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد، ثم أن قال : وأنكر صاحب، ولم يقل وأنكرت صاحبا " [1] ...

تحليل كلام الإمام وشرحه :

في نص الإمام إشارات إلى وجوه من الحسن ولكنها غير معللة، ونحن نأخذ في تعداد وجوه الجنس مع التعليل لكل وجه بما نراه أليق:

- قدم الظرف على عامله لأنه موضع الاهتمام، فهو الوقت الذي تغيرت فيه أحواله وتبدلت من سعادة إلى شقاء، وهذا الزمن كان له وقعه الشديد على نفسه، ونظير ذلك في القرآن قوله ـــ سبحانه ـــ : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [2] و ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [3] ففي الآية الأولى وقت العبرة والعظة في القصة كلها هو هذا الوقت وهذا المكان (هنالك) حيث قريش بفرسانها والأحزاب برجالها حولكم في هذا الوقت العصيب الذي زلزل فيه المؤمنون وبلغت فيه القلوب الحناجر، هذا الوقت هو الذي أراد الله أن يذكرهم به لتكون النعمة عليهم أكمل ... ثم في الآية الثانية كان للظرف : (هنالك) فضل عناية لأنه الوقت الذي أيقن فيه بالمسبب ورأى قدرته حيث كان عند السيدة مريم حين كفلها زكريا فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ولم يكن لها مورد رزق غير ما يأتيه لها زكريا ـــ عليه السلام ـــ فلما ذكرته بأن ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [4] دعا في هذا الوقت وهذا المكان.
- والتعبير بـ(لو) في البيت دون (ليت) في قوله (فلو إذ نبا) للإشعار بإمكان المتمني وقربه من نفسه وطمعا في تحققه وهو أن تكون داره بنجوة من تلك الأحداث وهذا نظير قوله ـــ سبحانه ـــ : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [5] طمعا في تحقق الرجوع إلى الدنيا ورجاء في

(١) الدلائل / ٨٦ .

(٢) الأحزاب / ١١ .

(٣) آل عمران / ٣٨ .

(٤) آل عمران / ٧٣ .

(٥) الشعراء / ١٠٢ .

إمكان العود إليها آثروا (لو) على (ليت) لأن ليت في تمني المستحيل بخلاف (لو) فإنها تقربه من الوقوع .

- والتعبير بالفعل المضارع في جواب التمني : (تكون على الأهواز داري) لما في المضارع من معنى الاستقبال وهذا يتلاءم مع التمني الذي يتعلق بالاستقبال أيضاً، ثم ما في المضارع من إفادة التجدد والحدوث.
- تنكير (دهر) لإرادة النوعية والتحقير، أي هو دهر غير متعارف فهو غير الدهر الذي ألفه الشاعر يوم أن واليا على الأهواز وكان موضع النظر والتقدير من العامة والخاصة، أما هذا الدهر النابي الذي تغير على الشاعر فليس هو الذي عهده .
- وفي إسناده النبو إلى الدهر مجاز عقلي؛ لأن الدهر لا ينبو وإنما ينبو الناس فيه فالعلاقة الزمانية ولكن في المجاز العقلي دلالة على المبالغة في تغير الدهر ونبوه وأنه لشدة تغير الناس وعداوتهم له كأن الزمان نفسه تغير عليه، ثم فيه من العموم والشمول والإحاطة ما ليس في قوله: نبا الناس في هذا الزمان ـــ مثلا ـــ لأن ذلك لا يفيد شمول التغير، أما في (نبا دهر) فيفيد تغير الدهر بما فيه عليه [1] ...
- وتنكير (صاحب، وأعداء، ونصير) لإفادة التحقير لهؤلاء، فالصاحب والنصير الذي كان مقتضى الأصل أن يدافعوا عن الشاعر قد تحولوا عنه، فهو صاحب لئيم محتقر، غير معروف بالصحبة ولا مشهور بخلالها، وتنكير أعداء فيه معنى التحقير وقلة الشأن وأنهم ليسوا من مشاهير الرجال وتنكير : دهر للإشارة إلى أنه دهر غادر، منكر مجهول، فليس هو الدهر الذي عهده الشاعر في أيام نعمته وولايته على الأهواز، وقد كان الشاعر عاملاً عليها من قبل الواثق، ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات ... [2]
- وبناء (أنكر صاحب، وسلط أعداء) للمجهول والأصل : أنكرت صاحبا وسلط قوم أعداء للإشارة إلى أنه لم ينكر صاحبه من نفسه، وإنما السبب من صاحبه نفسه، وأيضا لئلا ينسب

(١) انظر : في البحث البلاغي قراءة ثانية للمؤلف .

(٢) ينظر : خصائص التراكيب / ١٦٥ .

نكران الصاحب إلى نفسه صراحة لأن ذلك كبيرة، هذا في الأول، أما في الثاني فللدلالة على أنهم مدفوعون من غيرهم لا يستطيعون مواجهة الشاعر من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون من ورائهم من يدفعهم ويحركهم في الخفاء.

- وبناء (غاب نصير) للمعلوم للدلالة على أنه فعل ذلك من نفسه وللإشارة إلى غيابه لعدم علمه بما وقع فيه الشاعر من محنة .
- وقال : (وغاب نصير) ولم يقل وغاب (صاحب) لأن هناك فرقاً بين الصاحب والنصير، وهو أن الصاحب قد لا ينصر صاحبه لضعفه، أو لخوفه وجهنه، أما النصير فلابد أن يكون قويا وقادراً على النصرة...

- وجمع الأعداء في قوله : (وسلط أعداء) ومع توحده في مواضع من الذكر الحكيم ليدل على تنوع العداوة وتفرق أسبابها، فهذه عداوة قديمة لعلة تختلف عن الأخرى ولكنهم اتحدوا في عداوته ...
- وعبر بالدهر في قوله (إذ نبا دهر) لاستطالة أمد الشدة بخلاف الوقت والزمن على نفسه حتى وإنه كان وقتها قصيرا لأن وقت الشدة طويل على النفس وإن كان قصيراً في الزمن ...
- وساق الشاعر الأبيات من غير توكيد للدلالة على اشتهار هذه الأمور وأنها شاهدة لكل من يرى . والتعبير بالنبو مع الدهر للدلالة على تبدل الصفات مرة واحدة وتغير الأحوال ضربة لازم ...

وذكر المقادير والأمور للدلالة على التهويل والتكثير، وقدم مقادير على المسند الفعلي لأنها موضع التسلية، فإنه لا يستطيع أحد أن يعارض القدر، وأكد في البيت الثالث لشدة رغبته في تحقق الرجاء وامتلاء النفس بمضمون الخبر، وفي التعبير باسم الإشارة (هذا) للدلالة على أن تصويره لحاله كأنها مجسدة وشاهدة لكل من يرى، وفي التعبير بالعلمية (محمد) للدلالة على جمعه لكل صفات العلم، وفي التعبير بـ(ما) لعظم المرجو وإبهامه في نفس السامع، وفي إيثار (أخ) مع تقديمه على وزير

لاستثارة العاطفة لأن الأخوة هي الأصل في الرجاء دون الوزارة [1] .

فهل هذا مما يقارب مراد السيرافي في مناظرته؟!

الموضع الثاني : ما اتحد الموضع فيه ودق فيه الصنيع ـــ أـــ (المزاوجة) :

ذكر الإمام مواضع اتحدت في الوضع اللغوي، ولكنها اختلفت في كيفية النظم، بأن كان فيها خصوصية المسلك في كل موضع، وجعل من ذلك : " أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معا " وجعل الإمام ذلك على ثلاثة أنواع، ولم يشرح الإمام تلك الأنواع شرحا وافيا كعادته، لأنه يكتب لمثله ممن يفهم الشعر، ويتذوقه، ويخاطب قوما جبلوا على الفصاحة.

النوع الأول :

لأن تبنى المزاوجة على الشرط والجزاء، وذلك كقول البحتري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهـــوى ∴ أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجـــر [2]

وقوله ـــ أيضاً ـــ :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ∴ تذكرت القربى ففاضـــت دموعهـــا [3]

وهذا النوع يشترك في البناء على شرط وجزاء، والتفريع من الشرط فرعا آخر لحق بـــه، وصار جزاء منه : (نهى الناهي فلج بي الهوى) ولجاجة الهوى مرتبطة ينهى الناهي ومرتبة عليه وهو ارتباط سهل وسمح، ومواكب لأحوال النفس، لأن كف النفس عن الشيء يزيد احتدام الرغبة فيه وهذا حال الشاعر .

أما الجواب فقد أقامه على مثل ما أقام عليه الشرط : " أصاخت إلى الواشيء فلـــج بهـــا البحر" ولكنه جعل موقفها معاكسا لموقفه، فنهى الناهي يجعله في قبضة الهوى ويجعلها هي تصغي إلى الواشي ويلج بها الهجو. [4]

(١) انظر : نظرات في دلائل الإعجاز / ٣٠ .

(٢) الدلائل /٩٣ .

(٣) الدلائل / ٩٣ .

(٤) المدخل /٣١٠ .

توخي معاني النحو في البيت :

آثر الشاعر بعض طرائق القول في داخل تركيبه الكلي مما أعان على إبراز إحساسه ... فإيثار (إذا) للدلالة على تكرر نهي الناهي له ... ومع هذا فهو باق في قبضة الحب لا ينفك عنه ... وهذا يدل على وفائه وصدقه في حبه .. وزيادة : (ما) بعد (إذا) زيادة في التأكيد لإبراز محاولة الناهي تلو الأخرى وإلحاحه عليه بشدة أن يتركها، وإيثار العطف (بالفاء) في قوله (فلج بي الهوى) ليدل على أنه لم يفكر لحظة في تركها، ولم يتردد مرة ـــ عند نهي الناهي ـــ في هجوها وإنما داخله الهوى فتمادى فيه غير ملتفت إلى نهي الناهي، وإسناد (لج) إلى الهوى وتعليق (بي) به يدل على المبالغة في ذلك ...

وإيثار (أصاخت) على (استمعت أو أصغت) لأن في أصاخت معنى ليس في مرادفه، " فالإصاخة فرط التسمع والعناية والترقب للأمر المحبوب".. [1]

وإيثار (الواشي) والعطف بالفاء ليدل على ظهور كذبه لأن الواشي لا يقول إلا كذبا وشراً، ومع هذا فقد استمعت إليه سريعا ولم تجر كلامه على قليها لتتبينه ..

وبهذا يكون الشاعر قد أدمج أربع جمل تشابكت وتداخلت وصارت جملة واحدة، وهذا ما سماه المتأخرون مزاوجة وعرفوه بأن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء ... وطبق الأمر نفسه على البيت الثاني...

النوع الثاني :

وقال الإمام : " ونوع منه آخر، قول سليمان بن داود القضاعي :

فبينا المرء في علياء أهوى ∴ ومنحط أتيح له اعتلاء

وبينا نعمة إذ حال بؤس ∴ وبؤس إذ تعقبه ثراء[2]

علة المخالفة بينه وبين سابقه :

وإنما كان هذا نوعا آخر لأن التشابك فيه ليس مؤسسا على قاعدة وإنما هي المفاجأة

(١) المدخل / ٣١٠ .

(٢) الدلائل / ٩٣ ، ٩٤ .

والمباغتة التي تهدم الوضع القائم وتقيم مكانه وضعا آخر من غير أسباب ظاهرة، بل إنها تقوم على أساس نقض الأسباب والحسابات ترى الذي في العلياء أهوى إلى القاع، والذي في القاع صعد إلى العلياء والذي في نعمة بضربة البؤس، والذي في البؤس يغمره الثراء، وهكذا نحد ضربات تفاجئ الناس وتهدم توقعاتهم ... وهذا قاطع في أن فوقها آمرا قاهراً إذا حاول الأمر لا يغلب، وهذه حركة المعنى وهذا تماسكه وهو ليس مثل (إذا ما نهى الناهي) لأن هناك عللا وأسباباً، والمتصرفات هنا يعرفها الإنسان باختياره ويكسبه .. أما كلام أبي سليمان فهناك قوة خفية تضرب الذي في العليا فيسقط، وترفع الذي في السفح فيرتفع وهكذا طبع المعنى مختلف وطبع التشابك مختلف، وهذا معنى قول الشيخ : ونوع آخر ... [1]

رأس المعنى في البيت :

أرى أن رأس المعنى في البيتين قائم على الفاء وإيثار (بينا) وذلك لدلالة الفاء على عنصر المفاجأة ووقوع الأمر على غير وجهه، ودلالة (بينا) على تنوع الحوادث واختلاف طرقها ثم جاء النظم بعد ذلك كالتفصيل لما أجمل في : (فبينا) ؛ لأن السامع يتوقع مثله ..

النوع الثالث:

قال الإمام : " ونوع ثالث وهو كان كقول كثير :

وإني وقيامي بعزة بعدما ∴ تخليت عما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ∴ تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وكقول البحتري :

لعمرك إنا والزمان كما جنت ∴ على الأضعف الموهون عادية الأقوى [2]

علة الاختلاف :

واختلف المزاوجة ــ هنا ــ لأنها قامت على تحليل المشبه والمشبه به، فالمشبه في البيت الأول : " وإني وقيامي بعزه بعدما ... الخ " تأمل تركيب العبارة وتداخلها وبناءها على قيامه

(١) المدخل / ٣١١ .

(٢) الدلائل/٩٤ .

بعدما تخلى وتخلت وهذا هو جوهر المشبه، أعنى التهيام بعد التخلي، فكيف لو لم تتخل ؟

ثم إنه قال : تخليت، فقدم تخليه على تخليها ولم يقل إنها هي التي تخلت، كما قال في المشبه به إنه ارتجاها وهي استقلت، وهذا مذهب في النسيب، يذكر تهيامه بعد تخليه كلما يذكر الشاعر الشيب الموجب للسلوى لم لا يسلو والنأي الموجب للتغيير، ثم لا يتغير .

التهيام تفعال من هام يهيم، وفي التفعال معاناة ومقاساة، وكذلك ذكره في الارتجاء والمعاناة فيه أظهر، والتهيام كأنه توق يذهب بالنفس ويستفسد العقل وإنما ذكره بهذه الصيغة ليبرز معنى أن التخلي يفضي به إلى شدة الوجد ... هذا هو التركيب في المشبه .

والتركيب في المشبه به فيه تكثيف وخصوبة ــ أيضا ــ تأمل : "لكالمرتجي ظل الغمامة ... " ترى هذا المرتجي الذي بلفحة الهجير والعذاب والظمأ ويخدعه الأمل الكذوب، يتكون أمله في أن يتبوأ ظلها للمقيل، وهي اضمحلت كيلا تبوأ منها ... فترى التماسك بين أجزاء المشبه وأجزاء المشبه به ثم الربط بينهما بالأداة ...

أما في البيت الثاني : لعمرك إنا والزمان فقد اختلف عن قول كثير في هذا الإجمال الذي تراه في قول البحتري، بينما ترى كثيرا وقد حلل وفصل، والبحتري جمع كل ما أراد في هاتين الكلمتين : " نحن والزمان" ففي هاتين الكلمتين قصة الخلق مع تصاريف الزمان، والزمان ــ هنا ــ يراد به الزمان كله في ماضيه وحاضره، وضمير المتكلمين يراد به الإنسان كله في الأزمنة كلها والأحوال كلها والأجناس كلها ... ثم قرن هذا بتلك الصورة المختصرة والممتلئة بالصراع غير المتكافئ لأنها مكونة من طرفين : طرف يمثل القهر والغلبة والقوة والجبروت وطرف يمثل الوهن والضعف (كما جنت على الأضعف الموهون عادية الأقوى) وهذا تلخيص للصراع المحتدم في الزمن كله، ومع الإنسان الأقوى منه والأضعف والصحيح والسقيم، والمبصر والأعمى، والغني والفقير... [1]

(١) الدلائل : ٩٥ ، ٩٦ .

معاني النحو في الموضعين :

أصاب الشاعر في بناء التشبيه في الموضعين، فعند كثير بني التشبيه على تأكيد هيامه بعد التخلي عنها، لأن تلك حالة عجيبة تقتضي التأكيد لأن التخلي يقتضي السلو والنسيان وقابل حاله بعد التخلي بحال صاحب هذه الحالة ليشير إلى لهفته وتحرقه عليها هذا من جانبه ومن جانبها فهي تقابله بالصد والنفور جزاء لتخليه الذي بدأ به .

وإيثار الهيام وهو شدة الحب ليبرز حنينه إليها في صورة أبلغ مما كان عليها من قبل، ولم يقل في المشبه به لكالمرتجي الغمامة، وإنما أقحم الظل ليدل على أنه يريد أدنى النوال وأقله وهو التظلل، فهو لا يطمع في شدة القرب كما لم يطمع الراجي في ماء الغمامة ... وإنما أراد أقل النوال وأيسره ... وحتى هذا لا يناله، حتى يبرز لنا بؤسه وشقاءه ...

وإيثار القيلولة في قوله : (للمقبل) لأنه وقت شدة الحر، واشتداد الهجير، هذا الوقت هو ما يحتاج فيه المرء إلى الظل .. وهذا يعكس مدى تحرقه من شدة هيامه ...

وكذلك بيت البحتري فإنه بناه على القسم والتوكيد مع أنها حالة شائعة وعامة .. ولكن الناس عنها غافلون لا يرون تصاريف الزمان فيهم بعين معتبرة وفاحصة، وأوغل في بيان الضعف في قوله : (الأضعف الموهون) فأعقب الضعف بصفة الوهن لأنه ربما يكون ضعيفا ولكنه متماسك ولذلك نهى الله ــ عز وجل ــ المؤمنين عن الوهن مع أنهم مثخنون بالجراح والقتل في قوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] فالضعف يتعلق بالجسد والوهن يتعلق بالقلب فإذا اجتمع ضعف الجسد إلى ضعف القلب فقد استسلم المرء للحوادث وصار ميتاً .. وهذا هو مراد الشاعر ...

(ب) التشبيه المتعدد والمركب :

يرى الإمام عبد القاهر أن مما ندر منه ولطف مأخذه، ودق نظر واضعه، وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العناق، وغاية يعيي من قبلها المذاكي القرح = الأبيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين، كبيت امرئ القيس :

(١) آل عمران / ١٣٩ .

كأن قلوب الطير رطبـــا ويابـــسا ∴ لدى وكرها العناب والحشف البـــالي

وبيت الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنـــه ∴ ليـــل يـــصيح بجانبيـــه نهـــار

وبيت بشار :

كأن مثار النقع فـــوق رؤوســـنا ∴ وأســـيا فنالـــل قـــاوي كواكبـــه

ومما أتى في هذا الباب مأتى أعجب مما مضى كله قول زياد الأعجم:

إنا وما تلقـــى لنـــا إن هجوتنـــا ∴ لكالبحر مهما يلق في البحـــر يغـــرق

وإنما كان أعجب لأن عمله أدق وطريقه أغمض، ووجه المشابكة فيه أغرب.(١)

تحليل نص الإمام :

يشتمل كلام الإمام على ملاحظة أمرين هما : وجه دقة الصنع في الأبيات ثم وجه نفـــوق زياد في بيته الأخير على ما سبقه، ولم كان أعجب مما مضى؟

أولاً: وجه دقة الصنع في الأبيات :

وذلك يرجع إلى مراعاة النظم، وبناء تراكيبه وذلك كما يلي:

أ) بيت امرئ القيس:

حيث تجد في الكلام تركيبا في التشبيه وتعددا، وهما وإن بدا التناقض في ظاهرهمـــا إلا أن دقة الصنع جعلت ذلك واضحاً، فالتركيب في (بناء نظمه)، فالكلام مركب والتشبيه متعدد أمـــا تعدد التشبيه فالأمر فيه ظاهر.. وأما تركيب النظم فإنما كان لأنه أدخل أداة التشبيه (كأن) علـــى القلوب، ثم استخرج من القلوب حالين : (رطبا ويابسا) وجعلهما هما المشبهين وهذه شبكة جمعت المشبهين ثم ذكر الظرف : (لدى وكرها) فاستوفى الكلام بذكره مكان المشبه وإنما عنى بـــالظرف وقدمه لأنه أصل منهم في الكلام، فالغرض وصف العقاب صاحب هذا الوكر وإنما ذكر القلـــوب رطبها ويابسها لدى وكرها ليدل على كثرة الصيد، فالبيت كله كأنه كلمة واحدة، كأن واسمهـــا والحالان المستخرجان من هذا الاسم والظرف والخبر ثم إنه حذف وجمع وفرق وذلك بذكر القلب

(١) الدلائل/ ٩٥ ، ٩٦ .

والرطب واليابس، ثم أصاب أقرب الشبه من أبعد موصوف ولم يذكر كل مشبه به عقب المشبه وإنما ترك ذلك لفهم السامع [1] .. وهذا ما فضل البيت ..

ب) بيت الفرزدق :

وهو قوله :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ∴ ليل يصبح بجانبيه نهار

وإنما حسن لدقة صنعه لأنه من التشبيه المعقود على الجمع فإذا ما فرق التشبيه لم يصلح؛ ذلك أن حاله قد ذكر في صلة الآخر ولم يعطف عليه، ذلك أن : (يصبح بجانبيه نهار) جملة صفة (لليل) [2] وعلى هذا فلا يستطيع إفراده بالذكر أحد التشبيهين، بحيث لو قال : الشباب كالليل، والشيب كالنهار لسقط التشبيه لأن الغرض أن يشبه حال الشيب في الشباب بحال النهار في الليل..

والتعبير بـ(يصبح) يبين مدى كثرة الشيب وانتشاره بسرعة فالنهار يصبح في الليل ويطرده سريعا وكذلك الشيب يطرد السواد الدال على الشباب بسرعة ..

وإنما جعله يصبح بجانبيه، ولم يقل يصبح فيه ليدل على أن الذي بقي من أثر الشباب هو جانب الرأس فقط، وهذا أدل على انتشاره بسرعة...

ج) بيت بشار:

وهو قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ∴ وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

حيث راعى بشار ما لم يراعه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهي تعلو وترسب وتجئ وتذهب ... ذلك أن حقيقة تلك الزيادة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة، وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب واختلاف الأيدي بها في الضرب اضطرابا شديداً وحركات بسرعة، ثم إن لتلك الحركات

(١) المدخل/ ٣٢١.

(٢) ينظر : الأسرار /١٩٨ ، ١٩٩ .

جهات مختلفة وأحوالاً تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضا، ثم إن إشكال السيف مستطيلة.

فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليه بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهي قوله : (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها كان لها في تهاويها تواقع وتداخل، ثم إنها بالتهاوي تستطيل أشكالها، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة . [1]

ثم نجد حسنة راجعاً كذلك إلى توخي معاني النحو وسبك الكلام سبكاً واحداً مع ربطه بالفكر، فلم تخطر ببال بشار تلك المعاني منفصلة عن معاني النحو، أي : من غير أن يكون قد أوقع (كأن) لقصد التشبيه به، وأراد الإضافة في (مثار النقع) و(فوق رؤوسنا) وعطف وأسيافنا بالواو[2]... وهكذا بقية البيت ...

ثانياً : بم انماز بيت زياد ؟

بنى الشاعر بيته على ذكر قومه، وجعل ضمير المتكلم الذي يتحدث بلسان قومه رأس البيت وأنف الكلام، ثم أغمض الهجاء وأمات ذكره، وقوله (وما تلقى لنا المراد به الهجاء ولكنه أبهمه كما ترى ... ثم إن الهجاء جاء معلقا بـ (إن) وهي للأمر المشكوك فيه وكأنه يقول : لو أنك دققت وراجعت لرجعت عن الهجاء؛ لأنه مما لا ينبغي أن يكون إلا على سبيل الشك؛ لأن العاقل لا يجوز له أن يتجشم عملا ليس له قيمة، وكل هذا يؤكد حرص الشاعر على إخراج الهجاء من بناء كلامه، ومع هذا أشاع ذكر قومه، حيث ذكر ضمير قومه في الشطر الأول ثلاث مرات، وساق البحر مثلا لهم وكرره مرتين، وكأن الكلام كله على ذكر قومه، أما هجاء المخاطب فقد أغفله ... وهذا كله من دقيق النظم ومن طريقه الأغمض..[3]

(١) الأسرار / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) الدلال / ٢١١ ، ٢١٢ .

(٣) المدخل / ٣٢٣ .

الموضع الثالث: بدائع الاستعارة :

ذكر الإمام أن مبنى حسن الاستعارة قائم على ثلاثة أمور :

أ- حسن التصرف في النظم .

ب- الغرابة والبعد في الإدراك .

ج- الجمع بين عدة استعارات .

أ) حسن التصرف النظم :

وذلك في قول كثير :

وسالت بأعناق المطي الأباطح ∴

أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة وكانت سرعة في لين وسلاسة حتى كأنها سيول وقعت في تلك الأباطح فجرت بها. (١)

وعلى هذا ففي (سالت) استعارة تبعية وهي شائعة ولكن الذي أخرجها إلى الخاطبة هو التصرف في عظمها، والدقة في بنائها على النحو التالي:

١- إسناد السيل إلى الأباطح على طريقة المجاز العقلي لعلاقة المكانية للمبالغة في سرعة السير حتى كأن الأباطح هي التي تسيل .

٢- إيثار (سال) دون غيرها من المترادفات كجرى وأسرع لإفادة السلاسة مع السرعة فضلا عن اللين والتتابع في السير ..

٣- إيثار الباء (بأعناق المطي) دون غيرها في التعبير لدلالتها على اتحاد الصورة والجهة في سرعة الأباطح مع الأعناق فكأنها شيء واحد، بحيث لا يفرق الناظر بين سيل الأعناق وسيل الأباطح مع ما بعده من معنى الإلصاق.

٤- إدخال الأعناق في البين أي : بين سال والإباطح للدلالة على أن هيئة الإبل في سرعتها وخفتها إنما يظهر في أعناقها، ففيها زيادة تصوير وتشخيص، يقول الإمام : " ثم قال بأعناق المطي" ولم يقل المطي لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها

(١) الدلائل / ٧٤ .

وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة وتعبر عن المرح والنشاط إذا كانا في أنفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس وتدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم... " (١)

٥- التعبير بالمطي دون المطايا، لأنه لم يرد النص على الكثرة، وإنما أراد حقيقة الركب وهم الأصفياء القليلون بدليل قوله قبل ذلك أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا .

٦- التعبير بالواو دون الفاء لأن الفاء تفيد أن سرعة الإبل مسببة عن الأخذ بأطراف الأحاديث وهذا غير مراد، لأن المراد أنهم أخذوا بأطراف الأحاديث مع سرعة السير من الإبل ولذا حسنت الواو دون الفاء.

ب) في قول سبيع بن الخطيم التيمي :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا ∴ أنصاره بوجوه كالدنانير

أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب ألا تراه وكثروا عليه، وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجئ من ههنا وتنصب من هذا السيل وذلك حتى يفص بها الوادي ويطفح منها .. (٢)

وعلى هذا ففي : (سالت) استعارة تبعية كسابقتها وهي شائعة في كثير من المواضع ولكنها حسنت نظرا للتصرف في النظم وبناء الاستعارة... على وجوه مختلفة على ما يلي:

١- اختار : (سال) دون (أسرع) لما في سال من الدلالة على الطواعية والرضا، فضلا عن كثرتهم وازدحامهم وإتيانهم من كل مكان كما تكثر مجاري السيل.

٢- إسناد (سال) إلى شعاب الحي على المجاز العقلي للمبالغة في الاستجابة والسرعة حتى كأن الشعاب تسير بهم .

٣- التعبير بـ(على) في قوله (سالت عليه) يفيد أمورا ثلاثة :

أ- كثرة المجتمعين عليه حتى كأنهم قد علوه من كثرتهم .

(١) الأسرار / ٢٣ .

(٢) الدلائل/ ٧٤ ، ٧٥ .

ب- تصوير هيئة الناس وهم متدافعون نحوه عن طواعية ورضا.

ج- سرعة السير إليه حتى كأنهم يأتون من مكان مرتفع وهذا يفيد عدم تكلف السرعة ..

٤- في التعبير بالظرف (حين دعا) للدلالة على عدم التواني في الإجابة مع سرعة التلبية ...

٥- إيثار : (أنصاره) من غير أقاربه ... الخ لأن النصرة تدل على الإخلاص وتدل على حسن الهدف الذي جاءوه من أجله كما تدل على سيادة الداعي وأنه مطاع في قومه وأضافهم إليه للدلالة على اختصاصهم به.

٦- التعبير بالوجوه في قوله (بوجوه) لأنها أعز الأعضاء على الإنسان ولأنها موطن الطاعة والخضوع والإباء والامتناع، والباء ههنا للتلبس.

٧- وفي التشبيه بالدنانير للدلالة على الإشراق والتلألؤ من السرور دلالة على الشجاعة والرضا ولو كانوا كارهين أو خائفين لجاءوا متثاقلين بوجوه باسرة ..

ب) الغرابة والبعد في الإدراك :

بأن تكون الغرابة في الشبه نفسه، وذلك في قول الشاعر :

عودته فيما أزور حبائبي ∴ إهماله وكذاك كل مخاطر

وإذا احتبى قربوسه بعنانه ∴ علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فالغرابة ههنا في الشبه نفسه وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج كالهيئة في موضع الثوب من ركبة المحتبي[1]..

فالصورة ــ هنا ــ جاءت غير مألوفة، وغريبة، لأن الذهن لا يجمع بينهما في النفس، وهذا مقياس الحسن في التشبيه ــ أيضا ــ ...

ج) الجمع بين عدة استعارات :

وذلك في قول امرئ القيس : -

فقلت له لما تمطى بصلبه ∴ وأردف أعجازا وناء بكلكل

فالشاعر لما جعل لليل صلبا قد تمطى به، كنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب،

(١) الدلائل/ ٧٥ .

وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به، فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر ومده في عرض البحر [1]

فهل ترى في ذلك كله شبها بالمناظرة ؟

هل النظم هو البلاغة عند الإمام ؟

أمر آخر ينقض الدليل الأول هو أن النظم عند الإمام لا يعدو إلا أن يكون عمودا واحداً من عمد البلاغة عند الإمام، وهو عمود المطابقة أما البلاغة عنده فتقوم على عمد كثيرة استهل بها الإمام كتابه في قوله في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة : " وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أزهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بان تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بان تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي اصح لتأديته وتختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية...". [2]

في هذا النص بينا لعمد البلاغة عند الإمام، وأنها تقوم على أربعة قواعد رئيسية هي :

أولاً : حسن الدلالة .

ثانيا: تمام الدلالة .

ثالثاً : تبرج الدلالة في صورة هي أبهى وأزين ..

رابعاً : أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ..

وهذه كلها متعلقة بالدلالة، وليست متعلقة في المقام الأول بالألفاظ من حيث هي ولا بالمعاني من حيث هي، ولم يكتف بهذا، بل نبه إلى المهيع الملجئ إلى الوصول إلى المعنى الذي يراد تصويره وتوصيله كما سارى . [3]

(١) الدلائل / ٧٩ .

(٢) الدلائل / ٤٣ .

(٣) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني د/ محمود توفيق محمد سعد / ١١ .

وبهذا تعلم أن ليس النظم هو البلاغة عند الإمام عبد القاهر، وأنه لا يعدو إلا أن يكون عمودا تقوم عليه من بين عمد أربعة ترتكز عليها.

وعلى هذا تجد دراسة عبد القاهر الجرجاني في الدلائل كله ترتكز على تلك العبارة، بل إنك لو قلت إن دراسة البلاغة كلها شرح لهذه الجملة لم تكن مخطئاً .. ونبين ذلك بإيجاز :

أما حسن الدلالة وتمامها، فهي عند الشيخ الدلالة المصورة والتي هي نتاج الصياغة والنسج والتصوير، وهذا يسمع قويا من قول الإمام " إن ههانا أصلاً .. وهو أن يعلم أن سبيل المعاني سبيل أشكال الحلى كالخاتم والسوار، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجاً، لم يعمل صانعه فيه شيئا أكثر من أن أتى بما يقع عليه اسم الخاتم .. وأن يكون مصنوعا بديعاً قد أغرب الصانع فيع كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجاً عاميا موجوداً في كلام الناس كلهم، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الحاذق، حتى يقرب في الصنعة ويدق في العمل ويبدع في الصياغة[1] " .

ومما يؤكد ذلك ويقرره أن الإمام قد عقد فصلا [2] في الموازنة بين المعنى المتحد واللفظ المتعدد ليقرر أن التفاضل في المعاني المصورة وفي الصياغة، وليست في المعاني الأولية .. [3] .

فهل ترى في ذلك تلافياً مع ما جاء في المناظرة ؟!

تبرج الدلالة :

المراد بها : " سفور المعاني في صور زينتها، وأناقتها، وعجبها، وخيلائها، وكأنها عرائس حسان يتبرج حسنهن في غلائلهن، ويزدن ويتأنقن، ويداخلهن الزهو، فيستولين على أهواء النفوس، هذا شيء من الإحساس بالمعاني الحي ... [4]

(١) الدلائل / ٤٢٢ .

(٢) ينظر : الدلائل ٤٨٨ ــ ٥٠٠ .

(٣) نظرية النظم وقراءة الشعر / ٤١ وما بعدها .

(٤) المدخل / ٢٠٨ .

قول الإمام :

أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته وتختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له .. " يكشف عن رأي الإمام في قضية تتعلق بعمود البلاغة وهو وضع كل كلمة موضعها الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى أو سقوط البلاغة .. بل أكثر من ذلك وهو أن اللفظ الواحد نفسه لا يمكن أن يتكرر ـــ في النظم العالي ـــ في موضعين متطابقين تماماً، لأنه في كل موضع تعبير عن نفس صاحبه في لحظة وانفعال محدد يستحيل تكراره ..

وعلى هذا تحتوي تلك الفقرة من نص الإمام على مراعاة أمرين:

الأمر الأول :

نفي الترادف في الألفاظ المترادفة المفردة وذلك في قوله : " وتختار له اللفظ الذي هو أخص به .. "

الأمر الثاني :

المطابقة للأغراض والمعاني على اختلاف النفس والطبع ..

أولاً : اختيار اللفظ الأخص بالمعنى المراد والأشكل به :

وهذا هو الملائم للنظم العالي في الذكر الحكيم والحديث الشريف وشعر العرب ونثرها، حيث تجد الكلمة لاسيما في الذكر الحكيم قارة في موضعها بحيث لو استقصيت اللغة كلها فلا تدل على معناها في موضعها.

- تدبر قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ [1] دون : (انزلوا) لما الهبوط من معنى زائد اختص به يلائم ذلك الموضع وهو أن الهبوط : " نزول يعقبه إقامة، ومن ثم قيل : هبطنا مكان كذا ومنه قوله ـــ قال ـــ : ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ [2] أي انزلوا الأرض للإقامة فيها، ولا يقال: هبط

(١) سورة البقرة آية : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٦١ .

الأرض إلا إذا استقر فيها، ويقال نزل وإن لم يستقر".[1]

وبهذا تعلم أن مقام الآية يحدد الهبوط دون النزول لأنه في معرض الإقامة في الأرض والاستخلاف فيها ... وهذا يلاقي الهبوط دون النزول لأنه يحتمل عدم الاستقرار فيها ...

- كذلك تجد قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [2] حيث آثر صفة الشهادة مع سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ (شهيدا) بينما آثر (الرقيب) في جانب المولى ـ عز وعلا ـ لخصوصية في كل، فالشهيد يشهد ولا يستطيع أن يغير الواقع، بخلاف الرقيب فهو الذي يرقبك مفتشا عن أمورك فهو بمعنى الحفيظ ... [3]

كذلك الفروق بين الخبر والنبأ، حيث تجد النبأ في الذكر الحكيم في الأمور العظيمة الشأن، وترى هذا في قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾[4]، ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [5] .. أما الخبر فهو قول يحتمل الصدق والكذب [6] ... وعلى هذا لا يمكن وضع أحدهما موضع الآخر ...

وعلى هذا فمراد الإمام من قوله : " وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، واكشف عنه وأتم له .. " هو ملاءمة اللفظ للسياق والمقام وما عليه النظم جملة، سواء في تلاقي الكلمة مع أخواتها أم إيثار حروفها من شدة أو رخاوة أو جهر أو همس ... الخ أو دلالتها حيث يتسع مضمون الكلمة فيشمل معاني كثيرة تكون مرادة ويحتملها النص ويقوي بعضها سياق ما أو لفظ ما ـ أو تضيق الكلمة فلا تدل إلا على معنى محدد دون سواه ... فهذا له مقام وذاك له مقام آخر وتفصيل هذا يحتاج إلى بحوث [7].

(١) الفروق اللغوية / ٢٤٤ .

(٢) سورة المائدة آية : ١١٧ .

(٣) الفروق اللغوية / ٢٤٤ .

(٤) سورة ص آية : ٢١ .

(٥) سورة النبأ آية : ١ ، ٢ .

(٦) الفروق اللغوية /٢٨ ، ٢٩ .

(٧) انظر في البحث البلاغي قراءة ثانية للمؤلف /٢٠ ، ٢١ .

ثانيا : مطابقة الكلام لغرض المتكلم وهو ما عبر عنه الإمام :

" أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته " وذلك كما في حذف المسند إليه وذكره في قوله ــ سبحانه ــ : ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ (١) فمقتضى الحال يوجب حذف المسند إليه في قوله : ﴿ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ للتأدب في خطاب المولى ــ عز وجل ــ وهذا يقتضي عدم نسبة الشر إليه على وجه كهذا .. وإن كان الكل منه سبحانه ... على حين اقتضى الحال نسبة الخير إليه فذكر المسند إليه في قوله : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ ...

وهكذا تجد في قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ (٢) حيث جاء (إذا) في جانب الخير، للدلالة على القطع بوقوع الخير منه سبحانه، ثم جاء بـ(إن) في جانب السيئة للدلالة على ندرة وقوعها بجانب الحسنة ..

ويحتمل أن تكون جهات المعاني " هي الطرق التي تعبر بها عنها فقد تتعدد الطرق المعبرة عن المعنى ويكون بعضها اكشف للمعنى وأن حذقك ولقانتك، ويقظتك وطبعك هو الذي يهديك إلى طريق دون طريق فالبخل مثلا له جهات العبارة عنه، منها فلان بخيل، ومنها التشبيه ومنها المجاز ومنها الكناية، وكل طريق من هذه الطرق يتضمن جهات وطروقاً، فتقول في الكناية مثلاً : " قروا جارك العميان لما جفوته " أي أنه ترك ضيفه وأهمله حتى أطعمه الآخرون، وتقول : " أبوك حباب سارق الضيف برده " وهذا أخس، وتقول : " ونارك كالعذراء من دونها ستر، وهذا أضن".(٣)

وقفة مع هذا الطريق :

مقتضى هذا الطريق أن تتعدد الطريق المعبر بها عن الواحد في النظم العالي ولكن أرى أنه عند البليغ وفي النظم المعجز ــ لا تتعدد الطرق المعبر بها عن المعنى الواحد، بحيث ترى المعنى في الكلام المعتد به على قدر ما عبر عنه في جميع أحوال المتكلم وما اعتوره من انفعال .

(١) سورة الجن آية : ١٠ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٣١ .

(٣) المدخل/ ٢٢٦ .

وعلى هذا فالتعبيرات المتشابهة على معنى واحد إنما هي مختلفة التعبير والمعنى ـــ أيضا ـــ ذلك أن التعبير عن البخل مثلا بقول الشاعر : "قروا جارك العميان لما جفوته " لابد وأن يكون في بيئة تسب هذا الفعل وتكرهه ... ومن ثم فلا يكون كناية عنه في بيئة لا تراه عيباً ... وتختلف درجة العيب تبعاً لتعذر الطبع من مثل ذلك .. وعليه فالشاعر في حين نطقه بالكناية لم يجد أبلغ ـــ عنده ـــ منها، حيث رأها أدل التراكيب على الهجو .. ويدل على ذلك التفسير الآتي الكلام الإمام..

تفسير آخر لاختلاف الجهات التي تؤتي منها المعاني :

وهو تفسير أوسع مما قبله وأشمل وهو يتلخص في هيئة الشاعر لمعناه، وتقدمته له " حتى تكون هذه الجهة هي المتعينة في سياقه " [1] وبهذا يكون المراد بقول الإمام : أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته .. " أن تتحدد المعاني عند الشاعر في القصيدة ـــ مثلا ـــ حتى إذا جاء إلى بعضها كانت متعينة من السياق والسياق بحيث ترى الاختلاف بين الشاعرين المجتمعين على معنى واحد قد تعين نتيجة لما سلكه هذا وما تبعه ذاك ...

انظر إلى أبيات أبي نخيلة في مدح مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم يابن كل خليفة ∴ ويا جبل الدنيا ويا واحد الأرض

شكرتك إن الشكر حبل من التقى ∴ وما كل من أوليته صالحا يقضي

وأنبهت لي ذكري وما كان خاملا ∴ ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

ثم قارنه بأبيات أبي تمام :

لقد زدت أوضاحي امتدادا ولم أكن ∴ بهيما ولا أرض من الأرض مجهلا

ولكن أياد صادفتني جسامها ∴ أغر فوافت بي أعز محجلا

تجد أن الجهتين متقاربتان جداً، ومع ذلك تجد كل جهة أخص بسياقها وإليك الفروق بين الشاعرين، أما أبو نخيلة فقدم ذكر مسلمة محتفلاً بالمعنى، فقدم النداء، وأكد شكره بقوله : (إني) واعترض بجملة فخمة، حيث ذكر أنه ابن كل خليفة، لأن أباه عبد الملك كان خليفة ولأن

(١) المدخل / ٢٢٦ .

جده مروان كان خليفة، وكيف وصفه بأنه جبل الدنيا، يعني أن الأرض تثبت به كما تثبت بالأوتاد وأنه قائم بأمرها، وكيف أعاد النداء في المعطوف وقال : يا واحد الأرض ... ثم قال : شكرتك فجاء بخبر إن بعد هذا الإقحام الذي لا يخاطب به إلا الملوك، وقد صارت الجملة المعترضة هي أصل المعنى .. ثم استأنف جملة ثانيه زاد بها دلالة الجملة الأولى وضاءة وبهاء وأكدها بـ(إن) واسمية الجملة : إن الشكر حبل من التقى .. إلى غير ذلك من حسن التأتي للمعني ...

أما أبو تمام فقد جعل الجواد الكريم مثالا لمعناه، فذكر الأوضاح الممتدة وأن الممدوح زادها امتداداً، ثم أمدها الشاعر هو أيضا من جهته، فذكر أرضه وقومه .. وهكذا نجده التقارب الشديد والتباعد الشديد ... [1]

تفسير آخر لاختلاف الجهات :

وذلك عن طريق تعدد المداخل في الغرض الواحد تبعاً لتعدد نفسية الشاعر وحاله ... بل قد تتعدد المداخل عند الشاعر الواحد تبعاً لتعدد الأحوال التي يكون عليها .. قارن مداخل ذي الرمة في ذكر الطلل لتعرف الفرق بين هذه المداخل .. انظر إلى قوله:

أمنزلتي من سلام عليكما ∴ على النأي والنائي يود وينصح
ولا زال من نوء السماك عليكما ∴ ونوء الثريا وابل متبطح

وقوله :

يا دار ميـة بالخلصاء فالجود ∴ سقيا وإن هجت أدنى الشوق للكمد
من كل ذي لجب باتت بوارقه ∴ تجلو أغر الأعالي حالك النضد

وقوله :

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس ∴ بحزوي وهل تدري القفار البسابس
متى العهد ممن حلها أو كم انقضى ∴ من الدهر مذ جوت عليها الروامس

تجد اختلافاً بين الجهات الثلاثة وإن كان المعنى واحداً، فذو الرمة في الأبيات الأولى يخاطب منزلتي (مي) وهي بعيدة عنه بالهمزة التي هي للقريب ليدل عل شدة القرب : ثم يسلم عليهما بعد

(١) ينظر : المدخل /٢٢٦ ، ٢٢٧ .

النداء ثم ذكر القيد " : "على النأي " ثم قوله : والنائي يود وينصح ... ثم الدعاء لها بالسقيا ..

أما الأبيات التالية فينادي بـ(يا) التي للبعيد، ثم الأماكن ولكنه لم يسلم عليها، ولذلك تراه في الأبيات الأولى أكثر لوعة وأكثر إجادة ..

أما الأبيات الأخيرة فتقوم على السؤال، فهو لم يخاطب الديار ولم يسألها مباشرة وإنما يسأل: هل سئلت، ثم يرجع ويقول : وهل تدري القفار البسابس .. فهو إذن بعيد عن الديار ..[1]

وبهذا تجد معاني النحو التي تشبث بها الباحث ليدلل على سطو الإمام على فكر السيرافي ـ في وهمه ـ ما هي إلا جزئية من عمود واحد من فكر الإمام في البلاغة ...

الدليل الثاني والثالث : أن تلك الأفكار قد جاءت في الدلائل مرتبة على حسب ترتيبها في المناظرة:

وبين الباحث في هذا الدليل بواسطة جدول ما يقابل آراء أبي سعيد في المناظرة من أفكار الإمام في الدلائل نسوقها كما هي ثم نتبعها بإبطالها ونقضها :

	فكر أبي سعيد في المناظرة	فكر الإمام في الدلائل
١-	رد أبو سعيد على المناطقة الذين ادعوا على النحويين أنهم في اللفظ لا مع المعنى وأن علم النحو لا جدوى منه	وبدأ عبد القاهر في الدلائل بالرد على من زهد في علم النحو من المعتزلة الذين حاولوا تفسير القرآن، وتأويله مع ادعائهم أن المزية في الفصاحة ترجع إلى اللفظ لا إلى المعنى .
٢-	صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف فهو كالميزان	صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالإعراب فهو كالمعيار.
٣-	المناطقة محتاجون إلى اللغة المكونة من الاسم والفعل والحرف.	المدخل إلى الدلائل هو أن الكلام ينقسم إلى اسم وفعل وحرف
٤-	احتياجهم في رصفها وبنائها على	عملية تتم بانتفاء الألفاظ ثم ترتيبها في المنطق

(١) ينظر : المدخل /٢٢٩ ، ٢٣٠ .

	فكر أبي سعيد في المناظرة	فكر الإمام في الدلائل
	الترتيب الواقع في غرائز أبنائها	على حسب ترتيبها في النفس .
٥-	إنما دخل العجب على المنطقيين لظنهم أن المعاني لا تعرف إلا عن طريق المنطق مع أن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك.	النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يساق لها الكلام .
٦-	تشبيه النظم بالنسج ففيه تخير وإعمال فكر إذ الكلام كالثوب والنظم كالنسج والمعاني كالسدي والألفاظ كاللحمة ورقة اللفظ كدقة سلكه، وغلظه ككثافة غزله وبلاغته كقصارته .	معاني النحو كالأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش في الثوب بالتخير والتدبر فيها وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها .
٧-	نظرية البيان هي حقائق الأشياء وأشباه الحقائق .	نظرية البيان هي المعنى ومعنى المعنى.
٨-	قال أبو سعيد لمتى بن يونس : أتراك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت بأن الله ثالث ثلاثة ؟	قد تزل قدم المفسر إذا لم يكن على دراية بعلم النحو لأن من الآيات ما يحتمل أكثر من تأويل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ .

ثم يرى الباحث أن بقية دلائل الإعجاز تطبيق لنظرية النظم وتأكيد على صحتها بالأدلة

تلو الأخرى. [1]

ثم خلص من ذلك إلى أنه لا أفكار زائدة في الدلائل على ما هو موجود في المناظرة ومن ثم فليست الأفكار التي في الدلائل إلا التي هي في المناظرة .

نقض الدليل الثاني والثالث وإبطالهما :

نبدأ بنقض الدليل جملة ثم تعرج على تفنيد أجزائه حتى لا يبقى شك أو ريبة، فمبنى الدليل على أن البلاغة عند الإمام هي نظرية النظم وهذا وهم بحت لأنه ـــ كما تقدم ـــ لا يعدو ـــ النظم ـــ إلا أن يكون عمودا في البلاغة من بين أربعة عمد، وما في الدلائل كله ليس تطبيقاً للنظم كما زعم، بل هو مزج لأعمدة الرئيسة وبيان لها ...

أما الرد على أجزاء المقارنة بين أفكار المناظرة وأفكار الإمام في الدلائل فإنه من البين أن الإمام لم يبدأ كتابه بالرد على من زهد في علم النحو فقط ـــ كما زعم الباحث ـــ بل بدأ بالرد على من زعم عدم الحاجة إلى علم البيان أولاً، فإنك " لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه ومني من الحيف بما مني به ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه ... " [2] ثم رد على من ذم علم الشعر ثم النحو..

وترى الشيخ يقرن منزلة الشعر والنحو في إعجاز القرآن، ورأى أنه الجهة التي يعرف بها إعجاز القرآن الكريم، وإذا كان كذلك كان الصاد عنه كالصاد عن كتاب الله ... [3]

وهكذا تجد في قرن فائدة الشعر بالنحو منهجا جديداً ـــ كما أسلفنا ـــ في دراسة الإمام للبلاغة كما تجد فرقاً شاسعاً بين ما هو في المناظرة وما هو في الدلائل ...

أما القول بأن مذهب الإمام في النظم يقوم على تمييز صحيح الكلام من سقيمه بعلم الإعراب فذلك هو الخطأ بعينه لأن الإمام لم يبحث في وجه الصحة والفساد من حيث التركيب النحوي الذي نعهده فقد ذكر الإمام كلاماً يفيد أن الذي أودعه في (دلائل الإعجاز) ليس نحواً

(١) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر /٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الدلائل / ٦ .

(٣) ينظر : الدلائل / ٨ ، ٩ .

وإنما هو بحث فيما ترجع إليه مزايا الكلام، ثم هو بيان سبيل إدراك هذه المزايا إدراكاً تضع فيه اليد عليها ...

وهذه المزايا توجد في كلام ولا توجد في غيره، ثم هي حين توجد يختلف بها الحال، فقد تتلاحق في بطء وينضم بعضها إلى بعض على مهل، وتجدك في حاجة إلى أن تستوفي القصيدة أو الديوان حتى تشهد لصاحبها بسعة الذرع، وشدة المنة ... وهذا شيء غير النحو لأن النحو يوجد في كل ضروب الكلام على حد واحد، فالنحو الذي في الجيد المختار هو النحو الذي في غيره، وهكذا النحو الذي في القرآن هو النحو الذي في كلام الناس...

وقد كتب عبد القاهر ذلك في مدخل كتاب : (دلائل الإعجاز) ليبين أن الذي سوف يعالجه في هذا الكتاب هو الكشف عن عناصر بلاغة الكلام التي يرجع إليها التفاضل والتي يعلو بها طبقا عن طبق ومرقبا بعد مرقب حتى تنقطع القوى وتخرس الشقائق، وتستوي الأقدام في العجز...[1]

أما القول بأن مدخل الدلائل في انقسام الكلام إلى اسم وفعل وحرف ومن ثم متشابه مع فكرة أبي سعيد في المناظرة فذلك حق أريد به باطل، ذلك أن الإمام في المدخل لم يتوقف عند ذلك بل كان حاله حال الباني الذي يؤسس على قاعدة متفق عليها في جملة واحدة، فكان غرضه الرئيس الانتهاء إلى الإسناد الذي يجعل التفاضل، ليصل من ذلك إلى وجه إعجاز القرآن الكريم مع أنه في الإسناد كغيره من الكلام مؤلف من اسم وفعل وحرف... والدليل على ذلك من كلام الإمام نفسه ...

أما الجزء الأول فيقول فيه الإمام : " ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة ... "[2]

ويقول في الجزء الثاني : " وإذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحة

(١) دراسة في البلاغة والشعر /٨٤ ، ٨٥ .

(٢) الدلائل (٧) المدخل .

وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوا وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها فما هذا الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية وما هو الفضل والعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر ... ؟

أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ... ؟ فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكل ذي دين وعقل في الكتاب الذي وضعناه ويستقضي التأمل لما أودعناه، فإن علم أنه الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان تبع الحق وأخذ به، وإن رأى له طريقا غيره أو مألنا إليه ... "[1]

وهكذا تجد الإمام يهتم بطريق البيان ووجه الحجة الذي فضل به كلام كلاما وبزه حتى أعياه مطلبه، وليس في بيان الصحة والفساد من حيث الوضع لأن تلك ــ أي مرحلة الإعراب والنحو ــ مرحلة يتخطاها البليغ فلا يقارن بين كلامين إلا بعد التأكد من صحتهما لغة ... ثم يقارن بين طرائق النظم ...

وبهذا يمكن أن نرد على الدليل الثالث ــ أيضاً ــ لأنه ينبثق من الدليل الثاني، إذ يزعم فيه أن الإمام لم يأت بأفكار جديدة لم تكن في المناظرة وزاد على ذلك تأثره بالجرجاني في الوساطة وقدامة في نقد الشعر وأبي هلال في الصناعتين ... وفي دراسة أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى عن مصادر الإمام عبد القاهر وكيف إنه قد استحالت تلك الأفكار عنده إلى علم جديد ما يغني في الرد على ذلك ...

الدليل الرابع : عدم تنظيم الأفكار داخل الدلائل وترتيبها :

فإن طريقة الكتاب ــ هكذا يزعم ــ هي طريقة المناظرة وليست طريقة كتاب تعد أفكاره وتنظم، كالذي نجده في أسرار البلاغة ولهذا ــ بزعمه هو ــ فإنه أكثر من قوله : فإن قلتم كذا قلنا كذا ...

وذلك الدليل الرابع ينادي جهاراً على صاحبه بأنه لا يريد إلا طمس الحقيقة ومخالفتها؛ لأن تصريح الإمام في أكثر من موضع في الدلائل واضح لكل قارئ مبتدئ أنه قد اعتنى بتنظيمه وتبويبه لذلك سوف أتوقف عند القدر اليسير الذي يرد الدليل الرابع وأدع التفصيل لمن أراد المزيد

(١) السابق : ٨ ، ٩ (المدخل) .

للنظر في الدلائل نفسه ؛ لأنه كاشف عن ذلك حتى لا يخفى على أحد ..

نقض الدليل الرابع :

نبدأ بنقض الدليل من كلام الإمام نفسه، ثم نفسر ما يوهم عدم الترتيب.

ما يدل على التنظيم والتبويب من كلام الإمام نفسه :

ينبه الإمام على فصوله جملة، وأنها تأتي مرتبة لغاية، فيقول : " وليس يتأتى لي أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره وأن أسمي لك الفصول التي في نيتي أن أحررها بمشيئة الله ـ عز وجل ـ حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك، فاعمل على أن ههنا فصول يجئ بعضها في إثر بعض وهذا أولها ... " (١)

وقد اتخذ الدكتور حسن إسماعيل من ذلك دليلاً على أنه لا يعرف ترتيب الكتاب ولم يراعه، فيقول : " وهذا ـ يعني عدم مراعاة الترتيب ـ هو السر في أنه يقول في أوائل الدلائل : وليس يتأتى (٢) لي أن أعلمك الخ".

يقول هذا، مع أن نظرة أولى إلى النص تكشف عن مكنون الشيخ فهو ـ رحمه الله ـ " كتب هذا قبل أن يحرر فصوله على الورق، وإنما كانت في نيته أن يحررها، وكأنه يراجع مادته، وراجع مسائله وطال تأمله وطالت مراجعاته، واتسع صبره، حتى كأن الكتاب مكتوباً في صدره ونيته .. " (٣)

ينبه الإمام إلى تتابع الفصول فيقول : " ومما يجب إحكامه يعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلمة منظومة ... " (٤)

(١) الدلائل / ٤٢ .

(٢) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد وعبد القاهر/ ٥.

(٣) المدخل / ٩٤ .

(٤) الدلائل / ٤٩ .

فقوله : يجب إحكامه عقب هذا الفصل ظاهر الدلالة على شدة حرص الشيخ على ضبط منهجه وترتيب مسائله، وأنها لم تتابع في ونسقها ونظامها، وأن هذا الترتيب داخل في صلب الفكر وصلب بناء الشيخ لمادته العلمية؛ لأن وجوب ذكر مسألة في عقب مسألة لا يكون هذا الوجوب إلا إذا كانت الثانية تعطي مزيداً من البيان للأولى وأنها متلائمة معها وكالجزء منها ... (١)

ثم ينبه الإمام إلى أن ما قدمه يعد وطاء وتمهيداً، وعندما ينتقل إلى الغرض الرئيس ينبه إلى الولوج إلى القصد، فيقول قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية ... وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه، وينبغي أن نأخذ الآن في تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التي منها تعرض، وإنه لمرام صعب ومطلب عسير ... وأنا أنزل لك القول في ذلك وأدرجه شيئا فشيئاً ... " (٢)

فالذي يقول قد فرغنا الآن من كذا وينبغي أن نأخذ في كذا إنما ينبه إلى وجه بناء كلامه وإلى الترتيب المقصود ... (٣)

بل هناك ما هو أكثر من هذا فكان ــ رحمه الله ــ إذا عنت له فكرة في فصل قد فرغ من كتابته نبه إلى ذلك، يقول الإمام : " قد أردت أن أعيد القول في شيء هو أصل الفساد ... " (٤)، قول في موضع آخر : " واعلم أن ههنا شيئا شريفا قد كان ينبغي أن تكون قد ذكرناه في أثناء ما مضى من كلامنا ... " (٥) .

وإذا ألحق مسألة بمسألة نبه وقال : " وهذه مسألة قد كنت عملتها قديما وقد كتبتها ههنا لأن لها اتصالاً بهذا الذي جاء بنا القول إليه " (٦) وإذا كرر كلاما نبه إلى التكرار وذكر العلة وقال: " واعلم أني على طول ما أعدت وأبدأت وقلت وشرحت..." (٧)

(١) المدخل / ٩٤ .

(٢) الدلائل / ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) المدخل / ٩٥ .

(٤) الدلائل / ٤٢١ ، ٤٦٤ .

(٥) السابق / ٤٢١ ، ٤٦٤ .

(٦) السابق . /٤٢١، ٤٦٤ .

(٧) السابق / ٤٢١ ، ٤٦٤ .

وهذا كثير جداً ولا يكون إلا ممن له فضل عناية يضبط الأبواب وترتيبها، والترتيب والضبط جزء من العلم ؛ لأن إيراد مسألة لاحقة عقب مسألة سابقة قد يكون لبيان مزيد فهم للمسألة الأولى . (١)

ما يوهم ظاهره عدم الترتيب :

لا ريب أن هناك فصولاً وأبوابا في الكتاب ترتيبها ظاهر جلي لا يحتاج إلى كثير عناء كما في الفصول الأولى التي أشرنا إليها سابقاً ...

ثم هناك أبواب لا يظهر فيها الاطراد والتتابع إلا بعد إعمال نظر وفكر وروية، وذلك بسبب ما عهدناه، من أن النظم وما بعده من تقديم وحذف وفروق الخبر .. الخ هي أبواب علم المعاني، وما قبل ذلك من الكناية والاستعارة والتمثيل أبواب علم البيان، وأن العلمين هنا يتداخلان". (٢)

وذلك أن الشيخ بعد أن ذكر الفصاحة والبلاغة تكلم مباشرة عن الكناية والاستعارة، والتمثيل مبينا ما فيها من وجوه وتصرف وتفاوت ثم رجع إلى النظم وتفسيره وبيان دقائقه، ومكانة النحو منه ... وهذا يوهم ظاهره التفاوت في الترتيب ... ولعل هذا ما جر بكثير من الباحثين إلى التشكيك في تنظيم الإمام لكتابه ...

ولأستاذنا تعليل حسن في علة اتباع الفصاحة بالكلام على الاستعارة ولى وجه آخر أراه متمما له ومكملا لما بدأ به .

فيرى أستاذنا أن " التقديم والحذف وفروق الخبر إلى آخره هي أبواب المزايا التي منها الكناية والاستعارة والتمثيل، وأن الشيخ إنما فصل بين الكناية والتقديم بتعريف النظم وتفسيره لأن هذه الأبواب التي هي التقديم وما بعده إنما هي أبواب النظم وهي من أسرار الكلام ودقائقه وقد كان يقدم لكل باب منها بما يدل على أثره الواضح في بلاغة الكلام ... وهذا توضيح وبيان أنها وهي نظراءها مراجع مزايا الكلام وأنها أخوات الكناية والاستعارة وأنه إذا كان النظم هو القطب

(١) المدخل / ١٠٨ .

(٢) السابق : ٩٥ .

الذي عليه المدار والعمود الذي به الاستقرار، فإن هذه هي أبوابه ومسالكه ومداخله وتفسير النظم والمراد به ليس إلا متن النظرية ومحصولها الفكري المجرد وهذه الأبواب هي فروعه التي تحمل الثمرة، وبدونها لا يكون إلا جذعا وإن كان كريما حياً..." (١)

وأرى أن الإمام أراد بذكره الكناية والتمثيل والاستعارة وحسنها في الكلام وتفاوت هذا الحسن بحسب النظم أن يثبت أن مرجع الفضيلة والحسن إلى النظم سواء كان الكلام عن الصورة أم أجزائها ومفرداتها وأنه هو المعول عليه فكما أن الكلمة والتقديم والحذف ... الخ يحسن في بعض المواضع ويقبح في بعضها بسبب النظم وتظهر فيه المزية على مقدار الصنعة ... كذلك الأمر في الاستعارة والتمثيل والكناية، فليس الحسن بذاتي فيها بل مرجعه ـــ أيضا ـــ إلى موقعها في الكلام.

بيان ترابط بقية الأبواب :

ذكرنا وجه ترابط الأبواب الأولى في الدلائل ووجه بنائها مع التمثيل والإستعارة والكناية ... والآن نود الإشارة إلى وجه ارتباط الفصل والوصل ثم بقية الفصول بما قبلها.

ذكرنا أن باب الفروق في الخبر عند الإمام داخل في جنس المزية التي يحسن بها الكلام ... وقد ولد باب الفصل والوصل عند الإمام عند مسألة من مسائل فروق الجملة الخبرية غمضت والتبست وهي حذف واو الحال مع الجملة الاسمية، مثل قولنا : جاءني زيد والسيف على كتفه وخرج والتاج عليه، وجاءني زيد السيف على كتفه ـــ من دون الواو ـــ وهذا كلام نافر لا يكاد يقع في الاستعمال لأن الجملة الثانية لم تعد جزءا من الخبر في الجملة الأولى وإنما كانت كذلك لما كانت بالواو، وهي الآن أشبه بجملة مستأنفة ... ومن هنا دخل عبد القاهر عطف الجملة على الجملة وهو باب الفصل، فقال بعد هذا مباشرة : " اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف ... من أسرار البلاغة " . (٢)

ثم ذكر الإمام بعد هذا بحثا طويلا بعنوان هذه فصول شتى في أمر اللفظ والنظم ... " وهذا العنوان يبين طبيعة هذه الفصول وأنها مختلفة ويجمعها أن فيها شحذ بصيرة، ثم هي ردود على

(١) السابق/ ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) الدلائل / ٢٢٢ .

الفكر الشائع في زمانه، والاجتهاد في اقتلاعه ليبلغ في مداواة الناس من دائهم كل مبلغ... وهذه الفصول عامرة بالفكر البلاغي الحي ... والتغلغل في مباني الكلام والتعرف على حقائقه، ووجوه دلالاته، وبلاغته، ويوضح ما التبس على العلماء قبله كما في (كل) في سياق النفي ... ثم يتولد باب القصر كله من الكلام في (إن) وما فيها من دقائق ورقائق ... وأخذ الإمام ينتقل من مسألة إلى أخرى ليكشف ما التبس في قضية اللفظ ... إلى أن يتم الشيخ كلامه وكتابه بخاتمة يقول فيها الإمام : قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم وعلاج الفساد الذي عرض في آرائهم كل مبلغ وانتهينا إلى كل غاية ... ونسأل الله تعالى أن يجعل كل ما نأتيه ونقصده ننتحيه لوجهه خالصا...".

وهذا يدل على انتهاء الكتاب وأن ما جاء بعد ذلك من رسائل وتعليقات قد كتبها الإمام بعد ما تم له كتابه، وتم له نقض هذا المذهب وأنها بمنزلة ما يتوفاه الطبيب من تعهده بما يزيد في منته، يعني أن الداء قد ذهب، وأن هذه الرسائل احتياطات وتحصينات وتعقبات للحالة العقلية التي يعالجها حتى لا يرجه إليها الداء وتحدث انتكاسة [1]

وهكذا تجد ترابطا عجيباً ومقصوداً في تتابع أبواب وفصول دلائل الإعجاز، قصد إليه صاحبه قصدا حتى يصل به إلى غاية لا ينكرها إلا معاند أو جاحد ... ومن ثم بطل القول بأن الإمام لم يرتب أبواب مسائله وأنها جاءت على وفق المناظرة ...

هل أمعن الإمام في إخفاء رأي أبي سعيد في بيت الخنساء ؟

استغرب الباحث من أن الإمام لا يذكر مصدر فكرته في الدلائل وهو مناظرة أبي سعيد السيرافي، بل إنه لم يجر ذكرا لأبي سعيد السيرافي في دلائل الإعجاز، في الوقت الذي يذكر أبا على الفارسي ثلاث مرات ... وهذا بعيد عن الحق ... بين الزيف .

ثم زاد استغرابه لأن عبد القاهر رفض رأيا لأبي سعيد السيرافي وهو يؤلف الدلائل ولم يشر إليه إمعانا في إخفاء ذكره ..

ولما كان هذا الباطل أكثر زيفا من الأول آثرنا تتبع مصدر تلك الفكرة عند الإمام عبد

(١) المدخل / ٩٦ ــ ١٠٣ .

القاهر لنجد أن أبا سعيد السيرافي نفسه مسبوق بتحقيقها وأنه في كلامه لم يضف إليها شيئا ... بل وفاها العلماء قبله وزادوا عليها بعده إلى أن ألقاها الإمام ـــ رحمه الله ـــ رحيقا كاملاً ...

فقد ذكر الباحث أن السيرافي قد ذكر عند شرح سيبويه لقول الخنساء:-

ترعى إذا نسيت حتى إذا ادكرت ∴ فإنما هي إقبال وإدبار

فجعل الإقبال والإدبار مجازا على سعة الكلام، كقولك نهارك صائم حيث يقول أبو سعيد السيرافي في شرحه للكتاب : " يقدرون مثل هذا على تقديرين : -

أحدهما : أن يقدروا مضافا إلى المصدر ويحذفونه كما يحذفون في (واسأل القرية).

والوجه الثاني : أن يكون المصدر في موضع اسم الفاعل، وكان الزجاج يأبى إلا الوجه الأول، ومما يقوي الثاني أنك تقول : رجل ضخم وعبل فتجعلهما في موضع اسم الفاعل وليسا بمصدرين لضخم وعبل " .

ثم ذكر الباحث رد الإمام عبد القاهر الجرجاني لذلك وأنه يحيل الشيء عن جهته ... ثم يتساءل عن السبب ـــ في إغفال اسم أبي سعيد السيرافي في مثل هذا ... [1] ويخص إلى السبب عنده في أن الإمام عبد القاهر أراد أن تخلص له نظرية النظم وتسلم له، فأخفى ذكر أبي سعيد السيرافي عمداً ... ليذكر بها وحده ... [2]

نقض ذلك وإبطاله :

لعل الناظر في نص أبي سعيد السيرافي يجد فيه للنظرة الأولى ما يرد عليه، فأبو سعيد لم يكن إلا مجرد ناقل لكلام العلماء السابقين عليه وكلامه صريح في ذلك، في قوله : " يقدرون مثل هذا على تقديرين " فهو لم يتعد إلى الإبداع وإنما وقف عند حكاية آراء العلماء ... وإذا كان كذلك فكيف يذكره الإمام في مثل هذا ... ؟

هذا شيء ثم إذا رجعنا إلى منابع فكرة الإمام في بيت الخنساء لا نجد لأبي سعيد السيرافي أثرا يمكن أن يذكر، بل تطورت على يد سيبويه والزجاج والآمدي وابن جني حتى وصلت إلى

(١) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد وعبد القاهر / ٦ ، ٧ .

(٢) السابق / ٨ .

الإمام عبد القاهر.

فسيبويه يقول : " فجعلها الإقبال فجاز على سعة الكلام" [1] والزجاج يقول : " أي ذات إقبال وإدبار" [2] والآمدي يقول : فجعلت الناقة هي الإدبار والإقبال لأن ذلك كثير منها وإن شئت كان المعنى ذات إقبال وإدبار، فهذه طريقة الوصف بالمصدر [3]، أما ابن جني فيرى أن أقوى التأويلين أن يكون المعنى كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار لا على أن يكون من باب حذف المضاف " [4] فانظر كيف تطورت الفكرة من مجرد تقدير وتجوز على السعة عند سيبويه والزجاج، إلى الآمدي الذي علل ذلك بكثرة ذلك منها، إلى ابن جني الذي رجع ذلك على حذف المضاف، إلى الإمام الذي عده الوجه الأوحد الذي يمكن أن يحمل عليه البيت ...

والذي يقرأ النص جيداً يجد أن الباحث لم ينقل كلامه من السيرافي أو سيبويه مباشرة ولكنه أخذه عن طريق تاريخ علوم البلاغة، على حين أن قراءة النص عند السيرافي يحكم بانه مجرد ناقل فقط ...

لم اتكأ الإمام على الفارسي ؟

يخبط الباحث مرة أخرى عندما يتساءل مرة أخرى : " فما الذي جعل عبد القاهر الجرجاني يذكر أبا على الفارسي في الدلائل ــ ثلاث مرات ــ بل ويذكر كتبه التي ثقل منها وهي الإغفال والشيرازيات، والتذكرة ولا يذكر أبا سعيد السيرافي، مع أن الفكرة التي قامت عليها الدلائل نابعة من مناظرته ؟

يجيب الدكتور على ذلك بأنه ربما كان راجعا إلى ما يلي:

أولاً : إن عبد القاهر قد أراد أن تسلم له نظرية النظم، فتذكر له ويذكر بها، فلا تنسب إلى أبي سعيد السيرافي ولا يذكر بها، وقد كان لعبد القاهر ما أراد، فما من بلاغي أو ناقد أدبي

(١) الكتاب ٣٣٧/١ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥٥/٣ ، ٥٦ .

(٣) الموازنة / ١٥٣ .

(٤) الخصائص ٢٠٣/٢ .

يذكر النظم إلا ويذكر عبد القاهر أو يذكر عبد القاهر إلا ويذكر النظم .

ثانياً : أن عبد القاهر نفسه قد شرح كتاب الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي في ثلاثين جزءا ثم اختصره في ثلاثة مجلدات وأسماه المقتصد.

ثالثاً : أنه كان بين أبي سعيد السيرافي وبين أبي علي الفارسي ما بين العلماء من تنافس وتحاسد وقد كان عبد القاهر من تابعي مدرسة أبي على الفارسي في النحو ... [1]

الإجابة الصحيحة على السؤال:

يمكن لأي باحث عن الحقيقة حول مصادر الإمام أن يعلل تعليلاً صائباً لذكر الإمام لأبي على الفارسي ثلاث مرات وذلك بإيجاز يرجع إلى أن أبا علي الفارسي كان صاحب فكر جديد وعلم جديد ينفخ فيما بين يديه من روحه فيستحيل علما له قدره في تطور العلوم ... وهكذا كان الإمام عبد القاهر ينظر فيما قاله العلماء فيستخرج علما جديداً ويمكن أن أدلل على ذلك بأن باب القصر كله مبني على كلام أبي علي الفارسي في الشيرازيات...

وتوضيح ذلك .. أن الإمام عبد القاهر قد ولد القصر من نص لأبي علي الفارسي في الشيرازيات في قوله : " قال الشيخ أبو علي في الشيرازيات يقول ناس من النحويين في نحو قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [2] : إن المعنى : ما حرم ربي إلا الفواحش . قال $$$$$ ما يدل على صحة قولهم وهو قول الفرزدق:

أنا الذائد الحامي الزمار وإنما ∴ يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فليس يخلو هذا الكلام من أن يكون موجبا أو منفياً، فلو كان المراد به الإيجاب لم يستقم، ألا ترى أنك لا تقول : يدافع أنا، ولا يقاتل أنا، وإنما تقول : أدافع وأقاتل، إلا أن المعنى لما كان: ما يدافع إلا أنا فصلت الضمير كما تفصله مع النفي إذا ألحقت معه (إلا) حملا على المعنى". [3]

ثم أخذ الإمام بعد ذلك يوضح كلام أبي على شرح الفروق الدقيقة بين الأدوات فأخرج

(١) دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر /٧ ، ٨ .

(٢) الأعراف / ٣٣ .

(٣) الدلائل / ٣٢٨ .

لنا باب القصر، يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى : "كما يترجح أن يكون خلاصة كلام أبي علي الفارسي في (إنما) من باب الإشارة إلى مكان الخبيئ ليطلب، وذلك لأن الفارسي انتهى عند القول بأن (إنما) متضمنة معنى ما و(إلا) وقد نظر عبد القاهر في هذا فوجده منطويا على إشارة هي أن ثمة فرقا بين إنما وما وإلا لأن كون الشيء متضمنا معنى الشيء لا يعني أنه هو، ومن هنا بدأ عبد القاهر يتلمس الفرق بين التركيبين وكانت حصيلة هذا البحث هي باب القصر لأن أهم ما فيه هو الفرق بين أدواته ... " [1]

مصادر أخرى للإمام عبد القاهر غير أبي علي الفارسي :

لم يكن أبو علي الفارسي هو الأكثر دورانا في مصادر الإمام عبد القاهر، بل اتكأ كذلك على سيبويه والجاحظ وأفاد منهما الكثير، وذكرهما لأثرهما في تقرير قواعده وبناء أبوابه، فكلمة سيبويه في التقديم " أنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى " هي الأساس الذي بنى عليه باب التقديم عنده، وأول ما استخرجه عبد القاهر من هذه الكلمة هو تعميمها على كل تقديم، أي القول بأن كل تقديم لابد أن يكون لفائدة ومادام قد ثبت أن التقديم في بعض صوره مفيد، فلابد أن يكون كذلك أبدا ؛ لأنه من الخطأ أن يقال إنه مفيد في بعض مواقعه .

الخطوة الثانية التي خطاها عبد القاهر في تفصيل كلمة سيبويه هي بيان العناية والاهتمام في صور التقديم مع أنماط الكلام الثلاثة المشهورة، يعني الاستفهام والنفي والخبر المثبت .

وقد حلل الإمام ترتيب الكلمات في جملة الاستفهام تحليلا دقيقا وكان مصدره في ذلك هو جمع ضروب مختلفات من صور الاستفهام ثم دراستها واستخرج ما بينهما من فروق ... [2]

كذلك ذكر الجاحظ سبعة عشرة مرة [3]، وكان في كل مرة يؤسس بكلامه معرفة جديدة،

(١) دراسة في البلاغة والشعر / ٤٦ .

(٢) السابق / ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) ينظر : الدلائل ١٥ ، ٧٨ ، ٩٧ ، ١٦٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥، ٢٥٦ ، ٢٧٢ ، ٣٨٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٧٦ ، ٥٩٠ ، ٦٠٠ ، ٦٠٦ .

بينما ذكر سيبويه ثماني مرات [1] ... ولمزيد من معرفة مصادر الإمام عبد القاهر ومدى تأثيرها فيه يراجع ما كتبه أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى في سفريه : دراسة في البلاغة والشعر، ومدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ففيهما الكفاية والغنى ...

أخلاق الإمام تباعده عن السطو على فكر السيرافي :

ولعل آخر ما أسطره في الرد عليه هو أن أخلاق الإمام مانعة له من أن يخفى اسم أبي سعيد حتى تسلم له نظرية النظم فتذكر له ويذكر بها، فلا تنسب إلى أبي سعيد ولا يذكر بها بما رمى به الدكتور من غير دراية بأخلاقه لأنه أوقع الإمام في هؤلاء :" الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا" وتلك كبيرة يبرأ الإمام منها، فهو الذي يصف نفسه بقوله :" ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة " [2]، فانظر إلى قوله : " خدمت العلم " تجد فيها طالبا محبا للعلم وأهله، خادماً له، معولا في النظر إلى ما كتبه سابقوه معتمدا عليهم في تقرير مسائله ـــ فكيف يروق بعد ذلك أن يوصف بما قاله هذا الباحث ... ؟

ثم إن أخلاقه التي شهد له بها [3] أهل العلم له ناطقة بضد ذلك، وأنه لا يخفى رأيا لأحد ... هذا فضلا عما قررناه من البون الشاسع بين ما قاله أبو سعيد في المناظرة وما فتح الله به على يد الإمام في الدلائل من علم جديد، فالأول ذكر أمورا بدهية في النحو يعرفها طلاب العلم المبتدئون، وأما الثاني فأسس علما جديداً يذكر به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) ينظر الدلائل ١٠٧ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ .

(٢) الدلائل / ٣٤ .

(٣) ينظر : شذرات الذهب ٣/٣٤٠ ، وإنباه الرواة ١٨٨/٢ .

الخاتمـــــة

بعد هذه الجولة مع الأفكار التي وردت في المناظرة وما سطره الإمام في دلائله على وجوه متعددة ... نسطر النتائج التالية :

أولاً: إقامة الأدلة القوية على إنكار ما نسب إلى الإمام من إخفاء اسم أبي سعيد السيرافي لتخلص له نظرية النظم ...

ثانياً : إثبات المفارقة الشاسعة بين ما ابتدعه الإمام في نظريته وما جاء في المناظرة من أفكار ورؤى ...

ثالثاً : وضع مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي في موضـــعها الـــصحيح في مسيرة البحث العلمي وتطوره، فهي لا تعدو أن تكون حلقة عابرة وليس لها تأثير كبير في نمو نظرية النظم ...

رابعاً : إثبات تعمد الإمام ترتيب الأفكار داخل كتابه ترتيباً ينحو منحى الكتب التي تؤلف لإثبات نظرية جديدة، وتوصيل فكرة مبتكرة إلى منكري مضمونها، ومن ثم فقد يكـــرر للإثبـــات والتأكيد وقد يعيد للتحقيق والتثبيت، ولكنه ينبه ابتداء إلى منهجه ... ومن ثم فـــإن منهجـــه في الدلائل بعيد عن منهج المناظرة وأفكارها ...

خامساً : أكد البحث الطبيعة الخاصة لفكر الإمام في الدلائل والتي قامت على المزج بـــين خصائص الشعر وسماته وبين النظم وقواعده، وأن من بين هذا المزج تولدت نظريته ..

ويوصي البحث بإقرار الثوابت الخالدة الدالة على عظمة العقل العربي في مراحل ازدهاره وتألقه ... وأن خلخلة هذه الثوابت وهز تلك الحقائق إنما تعمق الفجوة القائمة الآن بين العـــرب وتراثهم، بل تزيد من تردي اعتقادهم في أنفسهم ...

والحمد لله بدءا وخاتمة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم ..

الباحث

مصادر البحث

- أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تح الأستاذ الشيخ / محمود شاكر ـ الخانجي .
- الإمتاع والمؤانسة ـ أبو حيان التوحيدي ط ثامنة .
- التأثير اليوناني في النقد العربي القديم د/ داود سلوم بحث الكتروني الكتاب العربي .
- خصائص التراكيب ـ د/ محمود أبو موسى ـ ط ثانية ١٩٨٣م.
- دراسة في البلاغة والشعر د/ محمد أبو موسى ـ ط ثانية .
- دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تح الأستاذ الشيخ محمود شاكر ـ الخانجي .
- دلائل الإعجاز بين أبي سعيد السيرافي وعبد القاهر الجرجاني د/ حسن إسماعيل عبد الرازق ـ ط أولى ١٩٩١م، دار الطباعة المحمدية.
- طه حسين والفكر اليوناني ـ د/ عباس أرجيلة ـ موقع د/ عباس أرجيلة الالكتروني .
- الفروق اللغوية ـ أبو هلال العسكري ـ دار الجيل بيروت .
- في البحث البلاغي قراءة ثانية للمؤلف ـ ط أولى ١٩٩٨م .
- الكتاب ـ سيبويه تح عبد السلام هارون ـ ط ثانية الخانجي .
- مدخل إلى كتاب عبد القاهر ـ د/محمد أبو موسى ـ ط أولى .
- موقف الكتاب والمؤلفين المسلمين من تراث الأوائل د/ محمد الحسين ـ موقع الكتاب العربي الالكتروني .
- نظرات في دلائل الإعجاز للمؤلف ـ ط أولى ٢٠٠٢م .
- نظرية النظم وقراءة الشعر ـ د/ محمود توفيق محمد السعد ـ ط أولى.
- نقد النثر ـ قدامة بن جعفر ـ قدم له د/ طه حسين ـ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .